
سلسلة 33
حكاية مصر
الهيئة العامة لقصور الثقافة
حكاية
مقاهي الصفوة والحرافيش
عيد عبد الحليم

حكاية
مقاهى الصفوة والحرافيش

عيد عبد الحليم



33

سلسلة شهرية للشباب تعنى بنشر تاريخ مصر

سلسلة
حكاية مصر

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• حكاية مقاهى الصفوة والحرافيش
• عيد عبد الحليم
القاهرة 2014م
• تصميم الغلاف:
د. خالد سرور
• المراجعة اللغوية: محمود أبو عيشة
• رقم الإيداع: ٢٦٥١٦ / ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-92-0046-0

• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

حكاية مقاهى الصفوة والحرافيش

الإهــداء

إلى أحمد

وأروى

حين يصبح للحياة معنى

عيد عبد الحليم

مارس٢٠١٤

يمتلئ المقهى بدخان - كلام، يتداخل فى نص
خارج النوع. ونشعر أن المقهى نهر، والأفكار
أوراق تطفو، ونسمع من يقول:
الزبد نفسه جزء من الماء

أدونيس - «كتاب الحصار»

كل ليلة
نجلس فى مقهى مختلف
لندرك
حكمة تبدّل الأصدقاء

عيد عبد الحليم
من ديوان «العانس قرب الأرض»

مدخل

١ - فضاءات متسعة

للمقهى مكانة خاصة فى حياة المصريين فى العصر الحديث، بما له من أهمية اجتماعية وثقافية، وبما يعنيه من قيم إنسانية قائمة على التلاقى والحوار، ويحمل المصريون عشقا خاصا للمقاهى، فعلى حد تعبير نجيب محفوظ متحدثا عن نفسه "طوال عمرى أعشق المقاهى وندواتها حتى أن قصصا لا تخلو منها فالحياة هنا.. ومن هنا يبدأ التاريخ"

بالفعل فعلى المقهى بدأت علاقات أدبية وفنية وسياسية واجتماعية وفكرية وشهدت طاولاته مولد أعمال شاركت فى تطور فنون الإبداع المختلفة، كما انعكست التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على أشكالها، فمن المقهى التقليدى بكراسيه وطاولته إلى "الكوفى شوب" و"مقاهى الإنترنت" التى

اجتذبت فئات مختلفة عمريا واجتماعيا، ومن كونه مشاركا فاعلا من خلالها، إلى مكان للتسلية وقتل الفراغ،ومن مكان به عناصر التشويق من خلال الطرز المعمارية المميزة، إلى طاولات تمتد على جانبى الشوارع المجاورة له.

وقد ورد وصف المقهى فى كتاب "وصف مصر" بأنه "مكان رحب متسع، مبنى عادة من طابق واحد، يتميز بالهندسة المعمارية الإسلامية فى الزخرفة، تنعكس آثارها على صناعة أبواب ونوافذ وسقوف وأعمدة المقاهى، يجلس الناس فيه على مساطب مفروشة بالحصر، وكانت تكعيبات العنب ونباتات الزينة تحيط دائما بالواجهة".

ورغم أن هذه الصورة التى قدمها علماء الحملة الفرنسية لشكل المقهى المصرى فى نهاية القرن التاسع عشر، إلا أنها تعطى لنا صورة واضحة عن اهتمام المصريين بالمقاهى، والتى انتشرت فى الآونة الأخيرة بشكل لافت للنظر حتى وصل عدد مقاهى القاهرة ـ فقط ـ وفق إحدى الدراسات فى عام (٢٠٠١) إلى ما يقرب من (٤٢) ألف مقهى ويبلغ عدد المترددين عليها يوميا المليون ونصف المليون مواطن، حيث تحولت المقاهى إلى مشاريع تجارية تدر أرباحا طائلة على أصحابها.

والهوس بالمقاهى، يكاد يشترك فيه معظم سكان العالم، فهناك "المقاهى الباريسية" ذات الطابع الكلاسيكى خاصة "مقاهى الحى اللاتينى"، وهناك "مقهى" أقيم فوق وسط كنيسة القديس بطرس فى مدينة الفاتيكان، والذى يقع فوق سطح الكاتدرائية عند قاعدة

القبة التى صممها الفنان مايكل أنجلو ، ويطل المقهى على مشهد جميل ورائع لميدان القديس بطرس ، وفى "بكين"هناك آلاف المقاهى لعل أشهرها مقهى "لاوشا" فى أحد شوارع العاصمة الصينية حيث يجلس الزبائن وأمامهم طاولات مربعة يأكلون بذور عباد الشمس ، وبعض الأطعمة الخفيفة ويشاهدون عروض الفنون الشعبية على أحد المسارح المقامة أمام المقهى وربما هذه الصورة تذكرنا بالمقاهى المصرية فى مطلع القرن العشرين مثل "ريش" و"الفيشاوى" و"أوبرا" و"متاتيا" وغيرها ، والتى كانت تقدم أمامها عروض "الحكواتى" و"المحبظاتية" و"الغناء الشعبى" و"الأرجواز" ، وقد تطور الأمر إلى أن تحولت أرصفة هذه المقاهى إلى مسارح قدمت عليها الأوبريتات الغنائية ، وكانت البداية الحقيقية لأشهر مطربى وملحنى وممثلى النهضة الفنية أمثال أم كلثوم وعبد الوهاب وعبده الحامولى ويوسف وهبى ولنجيب الريحانى ، وفاطمة رشدى ولنقرأ هذا الإعلان المنشور فى جريدة "المقطم" بتاريخ (٣٠) مايو (١٩٢٣) ونصه كالتالى :

"على تياترو كافيه ريش تطرب الجمهور يوم الخميس مساء ٣١ مايو بلبلة مصر صاحبة الصوت الرخيم الآنسة أم كلثوم . .

هلموا واحجزوا محلاتكم من الآن .

كرسي مخصوص ١٥ قرشا ودخول عمومى ١٠ قروش"

وكانت هذه المقاهى بالإضافة إلى المسارح التى أقيمت على حديقة "الأزبكية" نافذة جديدة لتقديم الأصوات والوجوه الجديدة فى الفن .

وبالمثل حفل الوطن العربى بمجموعة من المقاهى الأدبية الشهيرة ومنها "مقهى تحت السور" فى تونس، ومقهى "الكمال" فى سوريا ومقهى "القصيد" الذى كان يجلس عليه الطاهر حداد، وفى الأزدن مقاهى "إربد" و"الزرقاء"، و"شهر زاد" و"عمان" و"اليرموك" وفى لبنان مقاهى "النجار" و"الفتوح" و"الجنوب" و"مترى"، وفى بغداد وجدت مجموعة من المقاهى فى شارع المتنبى مثل مقهى "أم كلثوم"، و"الشابندر" و"حسن عجمى" و"الزهاوى" والذى سمى بذلك نسبة إلى الشاعر العراقى الشهير "جميل صدقى الزهاوى" وكان من رواده "معروف الرصافى"، و"محمد مهدى الجواهرى"، وكذلك مقهى النعمان الذى ضم النخبة المثقفة التى آمنت بالفكر الناصرى. وغيرها.

وأعتقد أنه برغم التغيرات الشكلية والجوهرية فى بنية وشكل المقهى إلا أنه سيبقى أحد الظواهر المكانية المهمة فى تاريخ ومستقبل الشعوب حتى وإن بدا تأثيره هامشيا، مع دخول عناصر ترفيهية تنتمى إلى ثقافة العولمة.

٢ ـ دراما المكان

وقد ظهر "المقهى" "كبطل" درامى فى عدد كبير من الروايات والأعمال السينمائية والتلفزيونية بداية من أعمال نجيب محفوظ التى ارتبط معظمها بالمكان مثل "زقاق المدق" والثلاثية الشهيرة التى تضمنت "السكرية" و"قصر الشوق" و"بين القصرين" و"قشتمر"

و"الكرنك" وغيرها من الأعمال التى شكل "المقهى" فيها عنصرا جوهريا كمكان للأحداث على مستوى السرد، وإن لم يظهر كثيرا حين تحولت هذه الأعمال إلى شكل درامى باستثناء رواية "الكرنك" التى كان "مقهى الكرنك" هو البطل الرئيس فيها ونقطة لانطلاق الأحداث، حيث كان ملتقى لمجموعة من الطلبة الثوريين الذين يتعرضون لممارسات أمنية عنيفة ،حيث يرصد الفيلم مرحلة شديدة القسوة فى تاريخ مصر الحديث، ويقدم نقدا لاذعا للمرحلة الناصرية خاصة استغلال بعض رجالها لنفوذهم الأمنى والعسكرى.

وقد نجح محفوظ فى بناء اللحظة الدرامية بما يتوافق مع التحولات الاجتماعية والسياسية مبينًا القضية كأحد الوجوه التى ترتبت عليها نكسة (١٩٦٧)، وقد تعرض الفيلم لممارسات رقابية عنيفة، إلا أن صناعه استطاعوا أن يخرجوا به إلى النور فكان البداية الحقيقية لجيل من الفنانين أمثال نور الشريف ومحمد صبحى كما شكل إضافة حقيقية فى تجربة سعاد حسنى وكمال الشناوى وفريد شوقى وشويكار.

وإذا كان "الطلبة" هم العنصر الدرامى الفاعل فى "الكرنك" فإن المقهى ضم عناصر اجتماعية أخرى وإن جاء دورها - فى الأحداث هامشيا - كالصحفى المتقاعد الذى أدى دوره الفنان عماد حمدى، والثرى المتصابى الذى أدى دوره فايز حلاوة وغيرها من الشخصيات التى عبرت عن أنماط اجتماعية مختلفة.

وربما كان "المقهى" أكثر حظا فى الدراما التلفزيونية فقد جاء

كعنصر محورى فى عدد من المسلسلات نذكر منها مسلسل "شارع الموردى" المأخوذ عن رواية بنفس الاسم لمحمد جلال وسيناريو وحوار يسرى الجندى حيث تدور الأحداث حول "مقهى الموردى" الذى شهد تحولات اجتماعية عاصفة، وقد نجح المسلسل جماهيريا بفضل الأداء التمثيلى لأبطاله صلاح السعدنى ومحمد وفيق ومنال سلامة ويحيى شاهين.

ولعل من أشهر المقاهى التلفزيونية "مقهى السماحى" فى مسلسل "ليالى الحلمية" تأليف أسامة أنور عكاشة، وإخراج إسماعيل عبد الحافظ، فقد شكل المقهى عنصرا دراميا فاعلا حيث شهد عددا من الصراعات السياسية والاجتماعية بين أبطال المسلسل شخصية "العمد سليمان غانم" التى جسدها الفنان صلاح السعدنى، و"شخصية سليم البدرى" التى جسدها الفنان يحيى الفخرانى، سواء كانت هذه الصراعات سياسية كالانتخابات، أو اجتماعية أو اقتصادية وفى كل ذلك برزت شخصية "المعلم زينهم السماحى" التى أداها الفنان سيد عبد الكريم، والتى جاءت كرمز للإنسان الشعبى البسيط الذى يثور ضد الظلم وينهض دائما لمساعدة الغير.

وظل المقهى عنصرا بارزا فى أحداث المسلسل بأجزائه المتعددة التى شغلت مساحة زمنية تمتد من منتصف الأربعينيات حتى منتصف التسعينيات حيث ظل وثيق الصلة بالأحداث الدرامية حيث كان ملتقى للعمال البسطاء والمثقفين ومكانا للثوريين والفدائيين، ومن خلال الأحداث تدرج من كونه مقهى اجتماعيا إلى

كونه مقهى سياسيا ، يجمع عددا من أصحاب التيارات الثورية والفكرية المختلفة بداية من شخصية "طه السماحى" شقيق صاحب المقهى الذى أدى دوره الفنان عبد العزيز مخيون وصولا إلى الأجيال الجديدة.

وقد اختار المؤلف مكانا يجمع بين الطبيعة الارستقراطية ـ القديمة ـ والطابع الشعبى من خلال "حى الحلمية" الذى يضم القصور والحوارى مشكلا خليطا اجتماعيا فريدا.

وشكل المقهى ـ كذلك ـ خلفية لأحداث مسلسل "جمهورية زفتى" الذى كتبه يسرى الجندى حيث كان مقهى "موستكلى" مكانا لالتقاء يوسف الجندى زعيم ثورة زفتى وأصدقائه الذين أعلنوا قيام جمهوريتهم إبان ثورة (١٩١٩).

وقد جاء المقهى عنصرا إضافيا بجوار العناصر الرئيسية المشكلة لبنية العمل الدرامى فى عدد من المسلسلات مثل "عفاريت السيالة" و"زيزينيا" و"عبد الله النديم" و"الأيام" وكذلك وجدناه بهذه الصيغة فى فيلم "عصفور من الشرق" خاصة فى المشاهد التى تجمع مؤلف القصة "توفيق الحكيم" وبطل الفيلم "نور الشريف" الذى جسد شخصية "الحكيم" فى هذا العمل.

وعلى مستوى السرد شكل "المقهى" فضاءات مختلفة فى بنية بعض الروايات المصرية بالإضافة إلى روايات نجيب محفوظ ومنها "الزينى بركات" لجمال الغيطانى و"ألعاب الهوى" و"أحمر خفيف" لوحيد الطويلة ، و"فوق الحياة قليلا" لسيد الوكيل ، و"المقهى

الزجاجى" لمحمد البساطى، و"النوم مع الغرباء" لبهاء عبد المجيد، و"تغريدة البجعة" لمكاوى سعيد وغيرها من الأعمال التى استفادت من المقهى والأجواء المحيطة به من حكايات وشخصيات وتواريخ.

وظهرت صورة المقهى بتجليات مختلفة فى الشعر المصرى الحديث بداية من صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى مرورا بأمل دنقل ونجيب سرور - الذى كتب ديوانا كاملا تحت عنوان "برتوكولات حكماء ريش - وصولا إلى الجيل الجديد من شعراء قصيدة النثر.

٣ - القهوة تواريخ وطرائف

" أريد رائحة القهوة، لا أريد
غير رائحة القهوة، رائحة القهوة
لأتماسك، لأقف على قدمى، لأتحول
من زاحف إلى كائن، لأوقف حصتى من
هذا الفجر على قدميها، لنمض معا، أنا وهذا
النهار، إلى الشارع بحثا عن مكان آخر"

"محمود درويش"

نوبة صحيان

للقهوة تاريخ طويل يضرب بجذوره فى عمق الحضارة العربية حيث ورد ذكرها فى كتاب" الحاوى" للرازى الذى عاش فى القرن العاشر للهجرة حيث أورد لفظ "البن" و"البتشام" وكان يقصد بهما

ذلك المشروب العجيب الذى يمنح المخ نوعا من التركيز، وكذلك في كتاب "القانون في الطب" لابن سينا الذى عاش في القرن الحادى عشر حيث ذكرهما في لائحة أدويته التي ضمت (٧٦٠) دواءً.

يذكر أن أول ظهور للبن كان في الحبشة واليمن، فكان اليمنيون أول من عمل على تحميص بذور البن وطحنها وشهد القرن الرابع عشر الميلادى بداية زراعته على نطاق واسع في تلك المنطقة، ومن بعدها انتشر شراب القهوة في مصر والحجاز وبلاد الشام، وبعدها انتقل إلى إسطنبول عندما افتتح سوريان أول مقهى "كهفي خان" قدمت فيه القهوة، ومن إسطنبول انتشرت القهوة في كل أنحاء القارة الأوروبية.

وقد نسجت حول نشأة وبداية معرفة العرب بثمرة البن حكايات وأساطير كثيرة، فقد ذهب البعض إلى أن رئيس أحد الأديرة بالجزيرة العربية هو أول من استدل على قوة ثمرة البن، ذلك أنه خرج ذات يوم إلى الصحراء فرأى قطيعا من الماعز يرعى فيأكل من أغصان شجرة "شجرة البن" فإذا بها تمرح ويعلوها نشاط مفاجئ، فتبين له ما بحبوب هذه الشجرة وثمارها من أثر فعال في تنشيط الذاكرة.

كما تشير أحداث التاريخ إلى أن أول من أكل حبوب البن نيئة "غير مغلية" هم الأحباش، ثم تطور الأمر فراحوا يشربون هذه الحبوب بعد نقعها في الماء لفترة، ثم زاد انتشاره في اليمن على يد الشيخ الإمام جمال الدين أبى عبد الله بن سعيد الذبحانى المتوفى

سنة (٨٧٥)هـ، ويروى الشيخ محمد بن عبد القادر الجزيرى الحنبلى أنه" لما تولى وظيفة تعليم الفتاوى فى عدن عرض له أمر اقتضى خروجه من عدن إلى برعجم فأقام به مدة فوجد أهله يستعملون القهوة ولم يعلم بخاصيتها ثم عرض له لما رجع إلى عدن، مرض، فذكرها فشربها فنفعته، فوجد فيها من الخواص أنها تذهب النعاس والكسل، وتورث البدن خفة ونشاطا. ثم صار الصوفيون يشربونها لتعينهم على السهر، وتتابع العامة والفقهاء والعلماء هناك على شربها فانتشرت فى اليمن ويقال إن السلطان سليم الأول هو من أدخل القهوة إلى "إسطنبول" عام ١٥١٧ وبعده بوقت قصير أدخل تجار البهارات القهوة إلى إيطاليا، ثم انتشرت فى جميع أنحاء أوروبا خلال مائة عام،أما عن أول المقاهى التى فتحت فى أوروبا فكان فى جامعة" أكسفورد" عام (١٦٥٠) حيث كان الرواد يتناولون القهوة خلال تبادل الأحاديث والقراءة والكتابة.

وفى سنة ١٦٧٠ امر الملك تشارلز الثانى بإقفال جميع المقاهى بدعوى أنها تحرض على الفتنة والعصيان.

وفى سنة ١٦٩٦ دخلت القهوة إلى نيويورك وذلك قبل أن تدخل البرازيل بثلاثين سنة ، التى تعتبر الآن أولى الدول المصدرة للبن فى العالم.

وفى سنة (١٧٣٢) ألف الموسيقى الألمانى الشهير" باخ" إحدى مؤلفاته الموسيقية تحت عنوان " مغناة القهوة"، وفى سنة ١٩٠٤ اخترع فرناندوايلى الإيطالى الجنسية ماكينة القهوة التى تصنع

القهوة اكسبرسوه (express)، وسنة (١٩١٠) صنعت كبرى شركات الأدوية الألمانية (merch) أول قهوة خالية من الكافيين.

وهكذا أصبحت القهوة من ضرورات الحياة العصرية ليس فقط كمادة لتنشيط الذاكرة وإنما في استخداماتها المختلفة كمادة علاجية حيث يستعمل الكافيين مع الأدوية المضادة للرشح وإزالة الاحتقان في الحلق والرئتين وعلاج مسكن للآلام وإزالة الحصوات ومنع زيادة الوزن وغيرها .

ومع التطور التقنى بدأت تظهر تقنيات جديدة لصنع القهوة حيث راحت المقاهى العالمية تتبارى فيما بينها في تقديم" فنجان قهوة مميز ذى نكهة خاصة" ، لدرجة ان سلسلة مقاهى" ستارباكس" العالمية أغلقت أبوابها في الأسبوع الأول من شهر مارس (٢٠٠٨) لمدة ثلاث ساعات في (٧١٠٠) مقهى تمتلكها حول العالم بهدف تدريب العاملين فيها - خلال هذه الساعات القليلة - على تحضير وصنع فنجان القهوة" الاسبرسيو" .

وقد شارك في ذلك ١٣٥ ألف عامل وعاملة قاموا بتدوين الملاحظات التى تساعدهم على تحضير" الاسبرسيو" بدءا بغلى الحليب وانتهاء بسكب القهوة في الفنجان.

ولم يتأت إقدام سلسلة المقاهى الشهيرة على هذه التجربة من فراغ وإنما عن دراسة واعية، فقد أدرك مالكوها خطورة المنافسة مع ازدياد عدد المقاهى التى تتخصص فى تقديم القهوة بأنواعها المختلفة في العالم. لدرجة أن سلسلة مطاعم ماكدونالدز - الشهيرة أعلنت

أنه ستقدم بالإضافة إلى وجباتها الشهية مشروب " الاسبرسيو " .

وتركز ستارباكس حاليا على قهوة "ألاسبريسو" وتسعى إلى تمييز نفسها عن باقي المقاهى من خلال ابتكار نكهة خاصة بها لا يمكن تذوقها فى أى مكان آخر .

وقد اختارت إدارة ستارباكس شعارا يقول : "قهوتك يجب أن تكون جيدة في كل مرة تشربها ، وإذا لم تكن كذلك . . أعلمنا سنجعلها جيدة" .

ومن المعلوم أن ستارباكس بدأت نشأتها مع بداية السبعينيات من القرن الماضى وتملك حاليا أكثر من (١٦) ألف مقهى ، وشعار الشركة ـ وهى الأولى عالميا ـ هو "تقديم أفضل كوب من القهوة للزبون فى جو تسوده الموسيقى والراحة" ولذلك تقوم الشركة ـ أيضا ـ بإنتاج الموسيقى وبيع الاسطوانات التى تنتجها فى فروعها المنتشرة حول العالم .

عيد عبد الحليم

القاهرة يناير (٢٠٠٩)

الباب الأول:

أيام على المقهى السياسى

مقهى متاتيا
الأفغانى وتلاميذه وإرهاصات الثورة

ارتبط مقهى "متاتيا" برواد النهضة فى العصر الحديث ، فعلى كراسيه وطاولته الخشبية جلس جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وعبد الله النديم ومحمود سامي البارودى وغيرهم من قادة الفكر وزعماء السياسة ، الذين كانوا يتوافدون إلى المقهى الذى كان يقع فى أسفل إحدى العمارات الشاهقة الواقعة بين ميدانى الموسكى والعتبة - وللأسف الشديد تم منذ سنوات إزالة العمارة بما فيها المقهى وأقيمت مكانها عمارة على الطراز المعمارى الحديث خالية من الروح ومن التاريخ لكن تبقى "متاتيا" فى الذاكرة كمكان شهد تحولات عاصفة فى تاريخ الحركة الفكرية والسياسية .

ورغم أن المقهى قد أنشئ فى منتصف القرن التاسع عشر إلا أن شهرته بدأت تتزايد مع قدوم "جمال الدين الأفغانى" إلى مصر سنة

(١٢٨٨) هـ، (١٨٧١) ميلادية وهو على حد وصف الإمام محمد عبده له في كتابه "الثائر الإسلامي.. جمال الدين الأفغاني"(١)
"رجل بصير في الدين، عارف بأحوال الأمم، واسع الإطلاع، جم المعارف، جرئ القلب واللسان.

اختار الإقامة في مصر، فتعرف إليه في بادئ الأمر طائفة من طلبة العلم. ثم تعرف عليه كثير من الموظفين والأعيان. ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد، فكان ذلك داعيا إلي رغبة الناس في الاجتماع به لتعرف ما عنده".

وقد كانت جلسات الأفغاني على المقهى أشبه بحلقة الدرس فكان يتردد على مجلسه كثير من العلماء أو على حد تعبير الإمام محمد عبده:
"فهو في جميع أوقات اجتماعه بالناس، لا يسأم من الحديث فيما ينير العقل، ويطهر العقيدة، أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور، أو يلفت الفكر إلى النظر في الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد والسكان.

وكان طلبة العقل ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام الإجازة.

وكان الزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ينشرون في الناس في أطراف متعددة من البلاد، خصوصا القاهرة". وتسابق المحررون الصحفيون لحضور ندوة الشيخ الأفغاني على مقهى "متاتيا" ونقل ما يجري فيها وبنظرة متأملة لجرائد ذلك الزمان مثل جريدة "مصر" و"مرآة الشرق" و"الأهرام" سنجد صدى تلك المناقشات والأطروحات الفكرية التي أثارها الشيخ.

وفى المقهى - أيضا - تلاقت أفكار التلميذ محمد عبده مع شيخه الأفغانى الذى قابله لأول مرة فى شهر المحرم سنة (١٢٨٨)هـ وفى ذلك يقول الإمام:

"صاحبت السيد من ابتداء شهر المحرم سنة (١٢٨٨)هـ، وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والفلسفية والكلامية. وأدعو الناس إلى حضور دروسه وأتلقى عنه، وقد قرأت عليه كتاب "الزوراء" للدوانى فى التصوف، و"شرح القطب على الشمسية" و"المطالع" و"سلم العلوم" من كتب المنطق. وكتاب "الهداية" و"الإشارات" و"حكمة العين" و"حكمة الإشراف" من كتب الفلسفة.

و"عقائد الجلال الدوانى" فى التوحيد، و"التوضيح مع التلويح" فى الأصول. و"تذكرة الطوسى" فى الهيئة القديمة وغيره من كتب الهيئة الحديثة. وقد شجعنى فى كتابة المقالات الأدبية والسياسة..!!

وحرصت على حضور مجالسه ودروسه ولكن مشايخ الأزهر وجمهور طلبته أخذوا يتقولون عليه وعلينا الأقاويل. ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى إلى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خير الدنيا والآخرة.!!

فكنت إذا رجعت إلى بلدى (محلة نصر - بمحافظة البحيرة) عرضت ذلك على خال والدى الشيخ درويش فكان يقول لى: "إن الله هو العليم الحكيم، ولا علم يفوق علمه وحكمته، وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل، وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه. وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة".

ويختتم الإمام حديثه في هذا الجانب قائلا :

"لم أهتم بتلك الأقاويل.. وكنت ألازم السيد ملازمة ظله، وأحضر دروسه وسامره. وكانت كلها مجالس علم وحكمة وأدب وسياسية..!

وكان السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريديها، وغير مريدها.. ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد، وإن لم يكن من أهله، وكنت أحسده على ذلك.. لأن حالة المجلس تؤثر في نفسي، فلا تتوجه للكلام إلا إذا رأيت له محلا قابلا واستعدادا ظاهرا.. وهكذا الكتابة..!!"

وقد جاء الأفغاني إلى مصر زائرا فوقع في غرامها ليس فقط كمدينة سياحية تجمع في طياتها حضارات شتى فرعونية وقبطية وإسلامية وبطلمية وغيرها، بل لناسها وموروثها الشعبي، وروحها الطيبة، وكان لمصطفى رياض باشا رئيس الوزراء وقتها دور كبير في جعل الأفغاني يقيم بالقاهرة، حيث أجرت عليه الحكومة مبلغ "ألف قرش مصرى" كل أول شهر بدون عمل. فكثر طلابه الذين بدأوا يتوافدون على مجلسه سواء كان في بيته أو في مقهى "متاتيا"، فزاد عدد الكتاب والأدباء بعد أن كان محصورا في أسماء قليلة أمثال عبد الله باشا فكرى ومحمد باشا سيد أحمد ومصطفى باشا وهبى.

وكان للأفغاني دور كبير في إخراج الكتابة الأدبية والفكرية من أساليب السجع والبلاغة الركيكة إلى اللغة المعاصرة التي ليس فيها تعقيدات وقريبة من الناس دون إخلال بالأسلوب العربي الرصين.

وفى عام (١٨٨١) بدأ شاب صغير فى نهاية المرحلة الجامعية "مدرسة الحقوق" يتردد على مقهى "متاتيا" حيث تعرف جمال الدين الأفغانى وكان هذا الشاب هو قاسم أمين ـ الذى سيصبح بعد ذلك ـ واحدا من أشهر الكتّاب والمفكرين وأكثر المدافعين عن حرية المرأة من خلال كتابيه "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة" . وقد تحلق قاسم أمين مع شباب آخرين كسعد زغلول . . ورجال أكبر منه قليلا منهم محمد عبده وعبد الله النديم وأديب إسحق وقد كتب عن هذه الفترة يقول : "فى عهد الاستبداد فى الوقت الذى كانت فيه كلمة الخديو تكفى لإعدام من يغضب عليه، فى تلك الأيام السود، التى كانت حياة الإنسان وحريته وأمواله مهددة بالضياع، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه ضمانة تحميه، فى ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم إلى صد إرادة الحاكم والتصريح بآرائهم" .

وعلى حد تعبير أحمد بهاء الدين فى مقدمته لكتاب "تحرير المرأة" فإن قاسم أمين قد امتزج بالعاطفة الوطنية المتحررة التى كانت فى مقدمات الثورة العرابية، بخاصة أنه عرف أقطابها عن كثب ـ على مقهى "متاتيا" ـ ولا شك أنه سافر إلى فرنسا مفعما بآمال بلاده لكنه أثناء وجوده فى باريس وصلت إليه الأخبار المحزنة بهجوم الإنجليز على مصر وكسر الثورة العرابية، والمحاكمات التى جرت لعرابى ورفاقه. وحين سافر الأفغانى ومحمد عبده إلى باريس منفيين وأصدرا جريدة "العروة الوثقى" ساهم معهما فيها، وأخذ يساعد محمد عبده على تعلم اللغة الفرنسية، لكن ما لبثت أن لوحقت "العروة الوثقى" وتم إغلاقها.

أما عبد الله النديم أديب الثورة العرابية وشاعرها الشعبى فكان حضوره في المجلس الفكرى لـ"متاتيا" يكسب الجلسة روحا فكاهية نظرا لما كان يتمتع به النديم من حس ساخر ولغة مفارقة عن وعي جعلته يجلس بجوار عقليات علمية لها طابع التأسيس في الفكر النهضوى العربى كسليم النقاش ومحمد عبده وقاسم أمين وجمال الدين الأفغانى وكقيادات سياسية كبرى كسعد زغلول ومحمود سامى البارودى اللذين أصبح كل منهما رئيسا للوزراء.

لم يكن النديم يقل عن هؤلاء بل كان يناطحهم رأسا برأس وفكرا بفكر، لأنه نموذج حي للمثقف الشعبى الجماهيرى وعلى حد تعبير المخرج السينمائى الراحل رضوان الكاشف فى كتابه "الحرية والعدالة في فكر عبد الله النديم" الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٥) "فنحن لسنا أمام رجل سهل.. بل نحن أمام أحد الذين تعددت جبهات كفاحهم واتسعت.. وأخطأ من لم ير فى النديم إلا خطيبا أو صحفيا برع فى الترجمة بلغة يسهل وصولها إلى قلوب الناس، ما صاغه الآخرون من أفكار، وما وضعوه من خطط.

فنحن مع النديم نكون بصحبة داعية كبير للحرية والعدالة وعارف بقدر المعارف والعلوم.. ومرشد للتحدث والتقدم والعمران.. ومفكر وثائر سياسى، كان أول من انضم من المدنيين لعصبة العسكر والوطنيين.. وكان مع آخر من رحلوا عن ميدان التل

الكبير..حيث كان الغزو.. وكانت المقاومة.. ونحن مع النديم نزامل شاعرا وزجالا ورائدا من رواد المسرح وقبل كل ذلك صحفيا ارتاد أرضا أجفل غيره من ارتيادها"

هذا هو النديم باختصار شديد الذى عاش حياة الصعلكة وعاش حياة التنظيم السياسى والاجتماعى فقد أسس عشرات الجمعيات الاجتماعية خاصة فى مدينته الإسكندرية والتى تهتم بزيادة وعى المواطن العادى والاهتمام بشئونه المعيشية.

صدمته ذات يوم خطبة الأفغانى فى مقهى "متاتيا" قبيل الثورة العرابية والتى يقول فيها: "إنكم يا معشر المصريين قد نشأتم على الاستعباد، وتريشم فى حجر الاستبداد.. لقد تناوبتكم أيدى الغاصبين من الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك.. وكلهم شيق جلودكم بمبعض نهبه، ويهيض عظامكم بأداة عسفه.. ويستنزف قوام حياتكم - التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم - بالعصا والمقرعة والسوط.. وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت.. انظروا أهرام مصر وهياكل مففيس وآثار طيبة.. وحصون دمياط شاهدة بمنعة آباءكم وأجدادكم! هبوا من غفلتكم.. واصحوا من سكرتكم. عيشوا كباقى الأمم الأحرار، أو موتوا مأجورين شهداء.. وأنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما يسد الرمق ويقوم بأود العيال.. لماذا لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق لب الذين يأكلون أتعابك؟!"

فما كان من النديم بعد أن سمع تلك الكلمات المحرضة على الثورة وعلى الخروج من حالة رد الفعل إلى الفعل إلى أن ذهب على أوراقه ليكتب مسرحية "الوطن".

إذًا كان النديم مفكرا من طراز فريد وكان سابقا فى طرحه للأفكار فكان أول من دعا إلى تعريب العلوم والمصطلحات العلمية حيث قال: "فعلى القائمين بأمر الأمم الشرقية أن يحولوا بين اللغة وموتها بإحداث جمعية من علماء الأزهر وأفاضل المدرسين الذين جمعوا بين لغتهم العربية أو التركية وبين اللغات الأجنبية ليصنعوا الاصطلاحات الطبية والكيميائية والهندسية ومفردات الكلام أسماء عربية تدرس تلك العلوم".

وهذه الأفكار وغيرها دارت فيها مناقشات مطولة داخل مقهى "متاتيا" حيث امتزجت الأفكار بدخان الشيشة التى كان يدمنها الشيخ الأفغانى وهى و"السعوط" حتى قيل عنه "أنه يوزع السعوط بيمناه، والثورة بيسراه".

ومن هذا المقهى وعلى كراسيه الخشبية المتهالكة بدأ التخطيط للثورة العرابية بقيادة الزعيم أحمد عرابى والذى كان أحد رواده الدائمين ومن أكثر من تأثروا بأفكار الأفغانى حول الثورة والحرية والعدالة الاجتماعية، وقد ظهر ذلك جليا فى مطالبه للخديو توفيق في سبتمبر (١٨٨١) حيث قال له من فوق ظهر جواده "لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا ولن نستعبد بعد اليوم".

وكانت هذه العبارة بمثابة "مانفيستو" ثورى قامت عليه الثورات السياسية التالية حيث حرية الشعب لا تنفصل عن حرية الأرض، والوفاء بحاجاته الاجتماعية المكفولة له فى المواثيق الدولية والتى تقرها مبادئ حقوق الإنسان.

فلم تكن ثورة عرابى مجرد هبّة عسكرية، بل كانت ثورة سياسية واجتماعية وفكرية، وكانت جزءا من مشروع نهضوىّ قام على إطار من الفكر الاجتماعى والوعى المشترك.

***

أما علاقة شيخ الملحنين زكريا أحمد بالمقهى فلها قصة طريفة فقد كان الشيخ زكريا فى مطلع شبابه ـ لم يكن تجاوز وقتها الثمانية عشرة من عمره ـ بعد أن ترك الأزهر حبا فى الفن، راح يتنقل فى الأفراح والموالد والمقاهى وراء المطربين والمنشدين، وفى المسارح والتياتروهات وراء الممثلين والراقصات، وكان يحضر كل ليلة الروايات الممثلة التى لم تكن تخلو واحدة منها من الأغانى وكان يحفظ أغانيها عن ظهر قلب، وخاصة تلك التى كان يلقيها سلامة حجازى، وبعد ان مات مصطفى كامل امتنع الناس - وقتها - عن مشاهدة المسارح والذهاب إلى دور اللهو، فلحن قصيدة أحمد شوقى فى رثاء مصطفى كامل مطلعها:

المشرقان عليك ينتحبان... قاصيهما فى مأتم والدانى

فجذب بذلك الجمهور وقد سجلت هذه القصيدة المغناة شركة "أوديون" وباعت منها آلاف الأسطوانات. وقد حفظها زكريا أحمد فى جلسة واحدة.

وكان الشيخ من المداومين على الجلوس فى مقهى "كتكوت" بشارع المشهد الحسينى وامتاز رواده بأنهم من المتأدبين الذين ينشدون الشعر أمثال الشيخ الشنقيطى، والشيخ حسن النجار، وذات يوم دخل زكريا أحمد المقهى فوجد سليم عبد الواحد الكاتب بمجلة "الزهور" يقرأ مقالا له يهاجم فيه "النحو والصرف" حيث يقول فيه "مسكين زيد وعمر فإنهما مازالا منذ عهد سيبويه يتضاربان "ويترافسان" إكراما لسادتنا النحاة فتارة يكون زيد ضاربا وأطوارا يكون مضروبا.. يبدأ الأجنبى أجروميته بتصريف فعل أحب، ويبدأ الشرقى أجروميته بتصريف فعل ضرب أو قتل.. ذلك يتمرن على الحب وهذا يتمرن على الضرب والقتل.. رحم الله سيبويه، فلو أنه أبدل فعل ضرب بفعل أحب أو غيره من الأفعال التى لا تضطر القارئ أن يحمل دروعه وأسلحته!! ألم يكن فى قاموس اللغة غير ذلك المثل المشؤوم".. وفى نهاية المقال كانت الحاشية "بمزيد من السرور وعظيم الابتهاج ننعى إلى طلبة الصرف والنحو حضرة الشيخ عمرو عدو زيد وجاره وبسبب نفطويه انتقل من الدار الفانية بعد عمر قضاه، فى احتمال الضربات من عدوه زيد، وقد أسلم الروح فراح شهيدا للنحاة على أثر الجروح المميتة التى ضرب بها على أم رأسه.. فانصرف مع أنه كان أعور والتمست جمعية الشفقة على الحيوانات من عدوه زيد أن يلحق به إلى دار الخلود وسيحتفل بتشييع جنازته نفطوية إلى قبر سيبويه ليدفن معه وتستريح عظامه المرضوضة.. وسننقش على ضريحه ضرب زيد عمرو".

وبعد أن قرأ عبد الواحد مقاله احتدت المناقشة إلى أن وصلت إلى التهديد وحاول بعض الشباب الاعتداء عليه بالضرب، فما كان من الشيخ زكريا إلا أن أقسم ألا يعود إلى مقهى "كتكوت" مرة أخرى وذهب لتوه إلى مقهى "متاتيا" والتى يصفها الكاتب صبرى أبو المجد فى كتابه عن "الشيخ زكريا أحمد" أنها كانت "بمثابة ناد لرجال القلم، ففى هذا المكان تعرف بالشيخ عبد القادر المغرى، وعبد الحميد الزهراوى وإمام العبد والشيخ محمد الشربتلى، وكان يحرر كل يوم أربع أو خمس جرائد أسبوعية حيث كان يأتيه صاحب الصحيفة ويدفع إليه خمسين قرشا على الأكثر ليكتب له ثمانية مقالات أو تسعة تكفى لأربع صفحات، وأحيانا يدفع له صاحب الصحيفة جنيها، ليكتب له مادة تزيد عن حاجة عددين فى مجلته الأسبوعية أو جريدته اليومية".

لم يكن يمر يوم دون أن يذهب زكريا إلى "متاتيا" خاصة فى فترة ما بعد العصر ثم يعرج إلى بار "بريلكى" أو مسرح إسكندر أفندى فرح حيث كان هذا البار بمثابة خلية فنية فالشيخ سلامة حجازى يلحن بعض أغانيه، ومريم سماط تراجع دورا لها، وفرح أنطون يكتب فصلا جديدا لرواية جديدة.

وكان ابن الثامنة عشرة - الذى لم يترك مكانا فيه رائحة الفن إلا قضى فيه أوقاتا طويلة ولم يقع فى يده كتاب أو صحيفة فيها أى موضوع عن الفن إلا قرأه بتمعن وفهم - حين يتردد على هذه الأماكن يكون راغبا فى الدراسة والحفظ والتعلم لدرجة أن أقرانه وأصدقاءه

لقبوه بـ"الملقاط" نظرا لأنه كان الأقوى ذاكرة والأسرع فهما وحفظا.

والمدهش أنه في هذه السن الصغيرة كان من أقدر الموسيقيين على أداء ألحان عبده الحامولي خاصة أغنية في رثاء زوجته ألمظ:

شربت الصبر من بعد التصافي

وكان لهذه الموهبة أثر واضح في رحلته بعد ذلك بداية من عمله في بطانة الشيخ علي محمود - رائد الإنشاد الديني - ثم الشيخ إسماعيل سكر، ثم في ألحانه التي وضعها لمسرح إسكندر أفندي فرح، أو ألحانه لمنيرة المهدية - سلطانة الطرب -، أو ألحانه مع كوكب الشرق أم كلثوم.

وهي الرحلة التي جمعت بين خفة الدم وبراعة الأداء الموسيقي لشخصية نادرة يصفها المؤرخ الموسيقي عبد الحميد توفيق زكي في كتابه "أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة" قائلا:

"من أهم صفات زكريا أحمد أنه شديد الحرص والإخلاص لجميع أصدقائه العديدين وكانت له نظرات فلسفية في الحياة، لم يهتم بالمادة بقدر اهتمامه بأصدقائه وزيارتهم ومجاملاتهم، كانت حياته طبيعية، لا يعرف للحياة قيودا ولا حدودا، وكان يعيش مع اللحن، وينسى الكون كله وما فيه".

مقهى مستوكلى
جمهورية اليوم الواحد

خلّد "أرنسو تشي جيفارا" فلاحي قرى بأمريكا اللاتينية في كتبه "حرب العصابات" و"بعد انتصار الثورة" و"يوميات بوليفيا"، حيث كتب الكثير عن كفاحهم وشهدائهم، مقدما نماذج إنسانية بالغة العذوبة.

ولم ينس أن يكتب عن أحد الفلاحين ساعد الثوار ودلهم على الطريق بعد أن ضلوا فى الغابات، وقدم لهم الطعام والمأوى، يقول "جيفارا":

"انتهى المطاف فى بيت العجوز منيوزا القائم فى دبرتيشاى دى كاركاس وقدم إلينا صاحب البيت بعض الطعام وبالرغم من خوفه الشديد فقد تعود على استضافتنا فى بيته كلما مررنا به مستجيبا لروابط صداقة مع كرتسيشو بيرنير ومع غيره من الفلاحين من أعضاء الفرقة".

وعن نفسه يقول جيفارا "لقد كانت المسيرة شاقة عليّ إذ أصابتني نوبة ملاريا، ولولا الفلاح كريسبو والرفيق الغالي خوليواكو ستازينون قدما لي من العون الشيء الكثير لما استطعت اجتياز تلك الحقبة الشاقة من أيام المرض".

وتذكرنا حكاية جيفارا بما فعله فلاحو مصر مع شاعر الثورة العرابية وخطيبها عبد الله النديم، الذى اختبأ لأعوام طويلة فى الريف بعد محاكمة عرابى ورفاقه كما تذكرنا بما حدث فى قرية "زفتى" التى أعلنت استقلالها وأقامت "جمهورية" إبان ثورة (١٩١٩) بقياد يوسف الجندى الذى كان أحد الشباب المقربين من الزعيم سعد زغلول، وقد فصل من كلية الحقوق عام (١٩١٤) بتهمة تحريض الطلبة على الإضراب احتجاجا على إعلان الحماية البريطانية على مصر.

وقد بدأ الجندى فى عمل تصور مبدئى لمجلس الثورة الذى كونه من كبار الأعيان فى البلدة وبعض المتعلمين والتجار ومنهم عوض الكفراوى، والشيخ مصطفى عمايم، وإبراهيم خير الدين، وأدمون بردا، ومحمد السيد، ومحمود حسن وغيرهم.

واتخذت لجنة الثورة ـ هذه ـ من مقهى "مستوكلى" مقرا لها وكان يملكها يونانى عجوز يحمل نفس الاسم، واجتمعت لجنة الثورة وقررت أن تبدأ بوضع يدها على الأجهزة الإدارية مثل محطة السكك الحديدية والتلغراف ومركز البوليس، وزحف يوسف الجندى إلى المركز على رأس مظاهرة ضخمة ضمت كل الرجال

وجيوش الصبية والصغار.. القليلون منهم حملوا بنادقهم القديمة وتسلح الآخرون بالعصى وفروع الشجر والفئوس.

وساعدت الظروف أن تجنب الدولة الوليدة إراقة الدماء.. إذ كان مأمور المركز رجلا وطنيا اسمه إسماعيل محمد ومعه معاون بوليس اسمه أحمد جمعة وخرج المأمور إلى المظاهرة وسلم يوسف الجندى المركز، والسلاح، وقيادة الجنود والخفراء.. ثم عرض خدماته عليه.. كمستشار للدولة الجديدة يشير عليه بوصفه خبيرا بأحوال الإدارة فيها.

ثم اتجهت المظاهرة إلى محطة السكك الحديدية والتلغراف فورا، واستولت على عربات السكك الحديدية التى كانت واقفة مشحونة بالقمح التى كان ينتظر إرسالها إلى السلطات الإنجليزية.

وهنا وجد يوسف الجندى نفسه أمام سؤال مهم كيف لدولته الجديدة أن تواجه مشاكلها الداخلية خاصة المشاكل الاقتصادية؟

فبدأ فى جمع التبرعات من الأهالى والأعيان لتأسيس خزينة للدولة الجديدة.. بالإضافة إلى أنه كانت هناك حركة تبرعات أخرى جارية لتمويل الوفد، وكان ـ على حساب ما أورد محمد يوسف الجندى فى سيرته الذاتية ـ يجىء إلى زفتى كل أسبوع مهندس من طنطا يسلم التبرعات التى تم تجميعها، اسمه عثمان محرم!

وكان قصد يوسف الجندى من ذلك أن يوجد عملا للأيدى الكثيرة التى تعطلت لظروف الثورة، فلا تتحول إلى السرقة والنهب.. فاستخدم الأموال المتجمعة ليوجهها إلى بعض الأعمال

المفيدة فتم ردم البرك والمستنقعات التى تحيط بالقرية، والتى يأس الأهالى من مطالبة الحكومة بردمها منذ عشرات السنين، وكذلك تم ردم الشوارع التى كانت تنشع بالمياه إذا حدث فيضان للنيل، كما تم إصلاح الجسور وإقامة مشاريع صناعية.

ومن أجل استكمال المظهر الحضارى تم إنشاء كشك خشبى للموسيقى على ضفة النيل، يشاهده أهل البلدة فى وقت الترفيه والراحة.

وكما أورد أحمد بهاء الدين فى كتابه "أيام لها تاريخ" فقد جندت لجنة الثورة كل التلاميذ والمتعلمين الموجودين فى القرية وقسمتهم إلى فرق: فرقة تقوم بدوريات مستمرة لحفظ الأمن.. وفرقة تراقب الحدود لتمنع تسريب مواد التموين أو دخول الجواسيس وفرقة تشرف على عمليات الرى وتزويد الأرض بالماء.

وظهر أن فى قلب زفتى توجد مطبعة صغيرة يملكها محمد أفندى "عجينة" أخذت تطبع قرارات الثورة وتعليماتها وأخبارها وتوزعها على الناس.

وكان لهذه الخطوة صداها على المستوى الدولى وعلى المستوى الشعبى فقد وصلت أنباء "الجمهورية الجديدة" إلى القاهرة وعبرت البحار والمحيطات إلى لندن، وصارت زفتى حديث القاصى والدانى خاصة بعد أن نشرت جريد "التيمس" فى صدر صفحاتها مانشيتا يقول إن "قرية زفتى قد أعلنت استقلالها.. ورفعت على مبنى المركز علما جديدا".

وقد رفع هذا الحدث معنويات كثير من القرى والمراكز المجاورة لمقاومة الاحتلال الإنجليزى مثل ميت غمر وميت القرشى.

لكن بريطانيا لم تسكت على هذا التمرد فأرسلت فرقة عسكرية لتقويض الجمهورية الجديدة والقبض على زعمائها وقد أعلنت القاهرة أن فرقة كبيرة من الجنود الاستراليين سوف تذهب إلى زفتى لتخضع القرية الثائرة، ويشير أحمد بهاء الدين إلى أن رجال الوفد أدركوا مدى الخطر الذى يتعرض له يوسف الجندى ورفاقه فأرسلوا له الرسل والرسائل لكى يعود إلى القاهرة.. وسافر إلى زفتى أخوه عوض الجندى - وكان فى القاهرة - ولما كانت المواصلات مقطوعة والتنقل داخل القطر ممنوع لم تمنحه السلطة الإنجليزية جواز سفر فقد ركب عربة كارو إلى قليوب، ثم مركبا نيليا إلى بنها ثم عربة حنطور إلى زفتى.

وقد وصل إلى زفتى ليجد قاعة الثورة فى مقهى "مستوكلى" يسبح فى جوها دخان السجائر.. وليرى أخاه الصغير يوسف قد ازداد نحولا، واستطالت لحيته.. ويرى الفلاحين يحفرون حول دولتهم الخنادق وينقلون إليها البنادق القليلة والذخيرة العتيقة التى لم تستعمل منذ زمن بعيد.. يستعدون للقاء الإنجليز.

وبعد حصار عنيف دام لبضعة أيام تم القبض على زعماء جمهورية زفتى. وطالبت قيادة الجيش البريطانى بأن يسلم أهالى القرية ٢٠ رجلا من الثوار، فسلموا بالفعل عشرين رجلا لكن من الذين اكتشفوا خيانتهم، حيث اكتشف الثوار أنهم كان يرسلون

خطابات إلى القيادة البريطانية بالقاهرة عما يحدث فى زفتى وهى لعبة ماكرة تدل على ذكاء أهل البلدة.

أما الجندى فقد نصحه رفاقه بالهروب فاختبأ فى قرية "دماص" لمدة خمسة عشر يوما، عاد بعدها إلى القاهرة ليمارس نشاطه الاجتماعى والسياسى، وليجلس - كل يوم - بعد العصر ليلعب الطاولة ويشرب القهوة فى "جروبى" فى ميدان سليمان باشا، وظل يمارس أدوارا سياسية حتى وفاته فى يوم الجمعة (١٢) ديسمبر (١٩٤١) وكان يبلغ من العمر (٤٨) عاما.

أما عن مقهى "مستوكلى" مقر الجمهورية الشعبية لزفتى، فقد مضت كالأشياء الجميلة واندثرت معالمها، وحل محلها بعض المحلات التجارية.

الباب الثانى:

مقاهى المثقفين والأدباء

مقهى ريش
الحياة خلف جدار زجاجى

قرن من الزمان مضى على تأسيس مقهى "ريش" الذى تأسس عام (١٩٠٨)، فى موقع جغرافى جعل منه المقهى الأشهر والأبرز فى القرن العشرين، فقد كان فى سنواته الأولى تمتد مساحته إلى ناصية ميدان سليمان باشا "طلعت حرب حاليا" لكن مع مرور الزمن تقلصت المساحة لتصل إلى ٤٠٠ متر هى مساحة المقهى حاليا وإذا كان الأشخاص يمثلون جزءا من جغرافيا المكان فإن هذا المقهى بما شهده من أحداث وأشخاص ومواقف يعد ذاكرة خاصة للثقافة، فلم يكن مجرد مكان للاستراحة أو شرب القهوة. بل كان حياة متكاملة حافلة بالعلاقات الإنسانية والاختلاف الفكرى والفنى والأدبى من خلال رواده الأفذاذ فى مجالات المعرفة المختلفة.

وقد أقيم كافيه "ريش" على أرض كانت فى الأساس قصرا للأمير محمد على توفيق قبل أن ينتقل إلى قصره الذى بناه فى المنيل، وحسب ما هو مدون فى وثائق وعقود المقهى وحجة الأملاك فقد كان عبارة عن:

"سراية مركبة من بدروم ودورين علويين داخل جنينة وبها سلاملك وعربخانة وأسطبل وكانت العوائد المقررة ٣٥ جنيها سنويا" وبعد هدم القصر بنيت على أرضه العمارة القائمة فوق المقهى فى عام (١٩٠٨)، وذلك بعد أن تم تسجيل الأرض فى المحكمة المختلطة فى مارس عام (١٩٠٥) تحت رقم (١١٠٢٣) وبلغت مساحة الأرض وقتها (٢٥٥٣) مترا مربعا ودفع فيها مبلغا قدره (١٢٧٧٠) جنيها بالإضافة إلى (٢٠١) جنيه مصاريف إدارية.

وقد قام ببناء العمارة عائلة يهودية تسمى "عادا" أما الشركة التى تولت بيع الأرض فكانت الشركة العقارية المتحدة والتى كان يرأس مجلس إدارتها ـ فى ذلك الوقت ـ صاحب السعادة "باغوص باشا نوبار" وكان يشارك فى إدارة الشركة مجموعة من كبار التجار الأجانب الذين كانوا يقيمون فى مصر وقتها. ومنهم الكونت دى زغيب وهو أحد أغنياء الجالية الدانماركية، ومسيو كراتل بك نوبار أحد التابعين للإمبراطورية العثمانية، ومسيو جرانت ماتوسيان تاجر فرنسى، ومسيو برفنت بك إيجاتون مهندس زراعى تابع للإمبراطورية العثمانية، وميسو شارل نيكول أحد رعايا الجالية السويسرية ومقيم بجنيف، ومسيس جون أثاناكس رعية يونانية

مقيمة في أثنيا، وهؤلاء الأجانب قد انتزعوا ملكية أرض وعقارات متنوعة لسداد ديون إسماعيل باشا الذى كانت منطقة التحرير ووسط البلد تسمى باسمه "الإسماعيلية".

ولكن متى تم افتتاح المقهى؟

جاءت فكرة إنشاء المقهى على يد بيرنارد تسينبرج وهو رجل أعمال نمساوى أقام فى القاهرة لعدة سنوات، وكان يهدف من إنشائه إلى أن يكون أقرب إلى صورة المقهى الأوروبى خاصة المقاهى الباريسية والتى يتوافد عليها المثقفون من أنحاء العالم، خاصة وأنه كان يرى تميز الموقع الجغرافى للمقهى فى وسط المدينة. لكن سرعان ما هاجر هذا الرجل إلى بلده متخليا عن حلمه بعد أن باع "المقهى" لرجل أعمال فرنسى يدعى هنرى ريسن عام (١٩١٤)، وهذا الرجل هو أول من أطلق عليه اسم "ريش" والذى يرى البعض أنه مشتق من اسم عائلته الفرنسية، ومع ذلك لم يستمر المكان فى حوزته إلا عامين فقد باعه مرغما بعد أن استدعته الحكومة الفرنسية لأداء الخدمة العسكرية، فاشتراه منه ميشيل بوليتس عام (١٩١٦) وهو خواجة يونانى كان يعمل مديرا لأحد الكازينوهات فى الأزبكية، ظل بوليتس - هذا - مالكا لريش حتى عام (١٩٣٢)، حتى جاء يونانى آخر واشتراه هو مانولاكس، ظل مالكا له حتى عام (١٩٤٢) ثم انتقلت ملكيته إلى جورج ايفتانوس وسيلى - وهو يونانى أيضا -، ثم استقر به الحال فى ملكية عبد الملاك ميخائيل وهو صنعيدى مصرى أحب المكان وعرف قيمته وتاريخه وارتبط بزبائنه

من أهل الفكر والفن، وورثه ابنه مجدى عبد الملاك فأكمل مشوار أبيه.

وبالمقهى مجموعة من الوثائق التاريخية المرتبطة بتاريخ المقهى ووثائقه وعقوده والمكاتبات المتبادلة بين كل من ميشيل بوليتس وحكمدارية البوليس المصرى الخاصة بالمطالبة باستخراج التصريح للمقهى بأوركسترا موسيقية.

وقد بدأت هذه المراسلات فى (٢٩) يونيو عام (١٩١٦) وظلت مستمرة حتى (٢٠) يوليو (١٩١٩)، أى ما يقرب من ثلاث سنوات كاملة.

وقد كانت الحكمدارية ـ دائما ـ ما ترفض هذا الطلب متذرعة بحجج سياسية واجتماعية فمرة ترفضه بحجة أن المقهى يواجه فندق سافوى ـ مقر قيادة الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى والتى انتقلت بعد ذلك إلى فندق شبرد القديم، ومرة أخرى بحجة الخوف من إزعاج الجيران.

وحين تكرر هذا الرفض ما كان من ميشيل بوليتس إلا أن ذهب إلى الجيران وجعلهم يوقعون على عريضة بالموافقة على إنشاء الأوركسترا الموسيقية، لكن قوبلت هذه العريضة ـ أيضا ـ بالرفض وبالتهديد فما كان من بولتيس إلا أن أحضر أوركسترا الموسيقى بدون ترخيص متحديا الحكمدارية التى استدعته للتحقيق لكنها أفرجت عنه ـ بعد ذلك ومن يومها دخلت الموسيقى إلى ريش.

وقد اشتهر ريش منذ بدايته بأنه مقهى النخبة، ففى حين كانت

المقاهى الأخرى تحوى خليطا بشريا من الطبقات المختلفة بداية من عمال التراحيل مرورا بالموظفين والفتوات والأفندية ، فإن ريش تميزت بالهدوء النسبى مما جعل أبناء الطبقة الوسطى وأحيانا الطبقة الراقية يقبلون عليها يلعبون الطاولة والبلياردو ويشاهدون المصارعة ويستمعون إلى الغناء ويشربون الخمور والقهوة والشاى وغيرها من المشروبات التى كان المقهى يقدمها .

فكما قلنا سابقا فإن مساحة المقهى كانت غير ما نراها حاليا فقد كان ممتدا حتى بداية ميدان سليمان باشا وكان يضم مسرحا للغناء والعروض المسرحية وصالة للمصارعة، وأخرى للعب الطاولة كنوع من القمار، بالإضافة إلى ماكينات مخصصة للقمار مثل التى كانت تنتشر فى "لاس فيجاس" .

وظلت لعبة "القمار" موجودة فى المقهى حتى عام (١٩٥٢) ، وقد كان سبب منعها أن المطربة اللبنانية الشهيرة صباح كانت متزوجة وقتها من عازف الكمنجة الشهير أنور منسى والذى اشتهر بإدمانه للقمار فكان يأخذ أموالها ليلعب بها ، وفى أحد الأيام وهو مندمج فى اللعب إذ بها تدخل عليه مقتحمة المقهى ومعها قوة من البوليس ليقبضوا عليه .

ومن يومها منعت إدارة المقهى هذه اللعبة وألغتها من برامجها وأنشطتها .

وكان لمسرح ريش أثر واضح فى الحركة الفنية المصرية والعربية فقد شهد أياما خالدة ، فقد وقفت على خشبته أم كلثوم لأول مرة فى

حياتها عام (١٩١٥) كأول مسرح تغنى عليه بعد قدومها من بلدتها "طماى الزهايرة" بالمنصورة، وكانت ترتدى وقتها عقالا بدويا.

كما جذب هذا المسرح مجموعة من كبار مطربى ومنشدى هذا العصر أمثال الشيخ أبو العلا محمد وزكى أفندى مراد (والد المطربة ليلى مراد والملحن منير مراد)، وكذلك المطرب ذائع الصيت وقتها صالح عبد الحى.

وقد شارك بعض هؤلاء المطربين بإنشاد أغانيهم مجانا، إلا أن أم كلثوم كان لها معاملة خاصة فقد ظلت نجمة للمقهى لعدة سنوات، وكان يطلق عليها وقتها تياترو ريش، وكانت تتقاضى فى الليلة الواحدة (١٥) قرشا، وهو أجر مرتفع بمنطق ذلك الزمان.

يدلنا على ذلك أن وصلاتها الغنائية كانت محط أنظار الصحافة والنقد، فنجد على سبيل المثال فى صحيفة "المقطم" فى عددها الصادر يوم (٣٠) مايو عام (١٩٢٣) - أى بعد سبع سنوات من قدوم أم كلثوم إلى القاهرة - إعلانا هذا نصه:

"تيارو كافيه ريش - تطرب الجمهور يوم الخميس مساء ٣١ مايو بلبلة مصر صاحب الصوت الرخيم الآنسة أم كلثوم.. هلموا واحجزوا محلاتكم من الآن.. كرسى مخصوص ١٥ قرشا ودخول عمومى ١٠ قروش".

وبعد ذلك انطلقت أم كلثوم لتغنى على مسرح "البوسفور" وغيره من المسارح الشهيرة وقتها.

وعلى خشبة مسرح ريش أيضا قدمت العديد من المسرحيات الكلاسيكية التى سطع فيها نجوم فى التمثيل والإخراج والتأليف أمثال بديع خيرى وروزاليوسف وحسين رياض ومحمد عبدالقدوس (والد الكاتب إحسان عبد القدوس) وعزيز عيد الذى جاء بجوقته المسرحية عام (١٩١٨)، ليقدم واحدة من تراجيدياته وكانت بطلة العرض روزاليوسف وكان عبد القدوس يقدم بعض المنولوجات بين فصول الرواية وقد قرب بينهما هذا العرض ـ كثيرا ـ الذى ما انتهى حتى أعلنا زواجهما، وبعد ذلك بما يقرب من أربعين عاما جمع المقهى بين أحمد فؤاد نجم وصافى ناز كاظم، وبعدهما بسنوات قليلة بين أمل دنقل وعبلة الروينى بعد أن جاءت لتجرى حوارا صحفيا مع شاعر "الرفض" والذى كان ملء السمع والبصر نظرا لطبيعة شعره المتمردة، وقصائده التى شكلت وعى جيل بأكمله وكان لها دور فاعل فى إذكاء الحركة الطلابية مثل قصيدة "الكعكة الحجرية" وقصيدة "لا تصالح".

وكان من رواد المقهى سامى الشوا عازف الكمان العالمى والذى كان يأتى ليشاهد أبطال الرماية ولعبة الشيش.

وعلى أحد طاولات المقهى تفجرت موهبة الممثل القدير خفيف الظل سليمان بك نجيب والذى كان يعمل عام (١٩٢٠) سكرتيرا خاصا لوزير الأوقاف ـ وكان هو نفسه من أسرة ارستقراطية اشتهرت بالعلم والثروة ـ لكن سليمان كان مسكونا بالفن خاصة التأليف المسرحى، كان حلمه الدائم أن يؤلف نصا مسرحيا تقدمه

إحدى الفرق التمثيلية، وعلى إحدى طاولات ريش باح بحلمه هذا لصديقه د. عمر وصفي والذى أخبره على الفور أن عنده رواية أجنبية تحت عنوان "لا شيء ولكنه حقيقة" من الممكن أن يمصرها سليمان وهذا ما تم بالفعل حيث باعها لفرقة "زكى عكاشة المسرحية" بمبلغ (٤٠) جنيها، وكانت هذه هي أولى خطواته الفنية والتى أبدع فيها أعمالا لا تنسى مثل "غزل البنات" وفيلم "فاطمة" بطولة أم كلثوم بالاشتراك مع أنور وجدى.

وظل مسرح ريش يقدم عروضه الفنية حتى أغلق عام (١٩٢٥).

***

ولم يكن ريش بعيدا عن الأحداث السياسية التى شهدتها مصر خلال القرن العشرين فقد جلس عليه زعماء سياسيون وقادة فكر وثوار، وربما هذا ما أشار إليه المؤرخ الشهير عبدالرحمن الرافعى فى كتابه عن الثورة حيث يشير إلى أن ريش كان مكانا سريا يجتمع فيه دعاة الثورة والمروجون لها والداعون إليها وأغلب الظن أن صاحب المقهى كان عضوا فى خلايا الثورة.

ويدلنا على ذلك أنه حينما ضرب زلزال عام (١٩٩٢) مصر أصيب المقهى بشروخ تم ترميمها على إثرها، وفى أثناء عملية الترميم تم اكتشاف سرداب صغير يؤدى إلى المخزن القديم فى البدروم، وكان هذا السرداب مجهولا، وفيه تم اكتشاف براميل كحل فارغة وماكينة طباعة يدوية - أغلب الظن - أنها كانت تستعمل فى طبع المنشورات السرية خلال ثورة (١٩١٩)، فمن نفس المكان

قرر الجهاز السرى للثورة أن يغتال فى (١٥) ديسمبر عام (١٩١٩) يوسف وهبة باشا رئيس وزراء مصر وقتها وقد اختير قبطي لاغتياله هو عريان يوسف سعد حتى لا تحدث فتنة طائفية فقد كان وهبة معاديا للثورة ولتوجهاتها الوطنية ، ومن ريش خرج عريان سعد لينفذ الخطة إلا أن محاولة الاغتيال باءت بالفشل .

ويؤكد بعض العاملين فى ريش أن جمال عبد الناصر وأنور السادات كانا من رواد المقهى قبل الثورة ، فيشير مجدى عبد الملاك ـ صاحب المقهى الحالى ـ "أن المقهى كان ملتقى الضباط الأحرار قبل الثورة ، حتى أن السادات وقت هروبه من قضية أمين عثمان كان مختبئا بالداخل وكان على ومصطفى أمين يرسلان إليه الطعام يوميا" .

ويؤكد عبد الملاك : "أن الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات كان وقت إقامة بالقاهرة من الرواد الدائمين للمقهى نظرا لأن مقر منظمة التحرير فى القاهرة كان فى المنزل المجاور لنا حتى عام ١٩٦٦" .

وكذلك كان من رواد المقهى الرئيس العراقى الراحل صدام حسين حين كان طالبا فى جامعة القاهرة .

ومع تزايد جماهيرية الوفد فى الأربعينيات من القرن الماضى كانت تقام ندوات فكرية وسياسية تروج لأفكار الحزب فى ريش كان يحاضر فيها مصطفى النحاس باشا ـ رئيس الحزب ـ ، ومكرم عبيد باشا سكرتير عام الحزب .

ومن المواقف الطريفة أنه كان من رواد المقهى الذين يداومون على

الحضور يوميا فى فترات المساء د. لويس عوض ود. طه حسين ورمسيس يونان ود. محمد مندور وعبد العزيز البشرى وتوفيق الحكيم وهم الذين تشبعوا بالفكر العربى ممزوجا بالدراسة الأوروبية، فكان الحوار ركيزة أساسية لمناقشة الأفكار، فما بالك إذا التقى هذا الجمع فى جلسة واحدة، لكن فى أحد الايام فوجئ هذا الجمع بالبوليس السياسى يقتحم المقهى ليقبض عليهم بدعوى أنهم مطلوبون سياسيا، وذلك بعد أن تم التجسس عليهم من بعض رجال البوليس السياسى.

وهذا ما أشارت إليه دراسة أعدتها بيجى روبرت أستاذة الصحافة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

***

وإذا كان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر يمثل حالة خاصة فى الوجدان الشعبى المصرى نظرا لأنه زعيم ثورة يوليو (١٩٥٢)، والتى غيرّت وجه الحياة الاجتماعية والسياسية فى مصر، لذا كان فراقه بمثابة حالة من الأسى عمت أبناء الوطن فكان يوم (٢٨) سبتمبر (١٩٧٠) يوم حداد جماعى، وفى جنازته فى الأول من أكتوبر كانت الملايين تسير فى الشوارع من رجال ونساء وشيوخ وأطفال تبكى قصة الأمل الذى انهار، ومع هذه الجماهير التى كانت تردد اسم البطل الراحل فى عبارات وشعارات تخلد ذكراه كان هناك نشيد واحد تردده الجموع الغفيرة من المواطنين وهو:

الوداع يا جمال.. يا حبيب الملايين

ثورتك ثورة كفاح . . عشتها طول السنين
الوداع . .
إنت عايش فى قلوبنا . . يا جمال الملايين
إنت ثورة إنت جمرة . . لاجل كل الشقيانين
الوداع

ورغم أن هذا الهتاف الشهير يتذكره الكثيرون من محبى عبد الناصر نظرا لأن الجموع الغفيرة التى حضرت موكب الجنازة والذى بلغ اتساعه ما يقرب من (٤٠) كيلو مترا ، إلا أنه ليس مجهول المؤلف كمعظم الهتافات ، فما هى حكاية هذا الهتاف الأقرب إلى بنية الأغنية ؟

أثناء تصحفى لبعض الأوراق القديمة عثرت على حوار مع الكاتب عبد الرحمن عرنوس أجرته معه جريدة "الطلاب" التى أسسها عبدالناصر ، وكانت لسان حال الاتحاد العام لطلاب الجمهورية العربية المتحدة ـ هكذا كتب على الترويسة الرئيسية للجريدة فى عددها الصادر فى (١٠) أكتوبر (١٩٧٠) ـ وفى هذا الحوار الذى أجراه شريف باشا يحكى عرنوس عن ميلاد هذا النشيد الجنائزى فيشير إلى أن لحن هذا النشيد وكلماته ولدت من الشعب فكان يجلس على مقهى ريش بميدان طلعت حرب فكانت الجماهير تمر فى اليومين السابقين للجنازة فى تظاهرات جنائزية . وفى أحدها تقدم موكب من الشباب وهم عمال وفلاحون ، ممسكين فى أيديهم أغصان شجر وجذوع نخل وكانوا يرددون لحنا فرديا مطلعه :

الوداع يا جمال .. أودعناك عند الرحمن

وبعد ذلك تحولت كلمة "أودعناك" على اللسان الشعبى الدارج إلى "ودعّناك"، ومن شارع الانتكخانة كانت تسير "مندبة" حزينة تضم عددا كبيرا من النساء يصرخن ـ بشدة ـ وكنا يرددن:

مصر خسرت .. مصر خربت

يا حبيب الغلبانين

ونلاحظ أن الإيقاع فى هذه الشطرة هو نفس الإيقاع الحزين الجنائزى فى المقطع الأول الذى يقول "الوداع يا جمال الوداع"

ويضيف عرنوس: "وفى أثناء انتظارى للزملاء فوجئت بأن أحد الشباب كان يترنم قائلا يا جمال يا حبيب الملايين فأمسكت بالزميل وبدأت أترنم بأغنية "يا جمال يا حبيب الملايين" فتجمع حولنا عدد كبير من المواطنين، بعد ذلك فوجئنا بالجماهير كلها تلتف حولنا وتردد عنا:

ثورتك ثورة كفاح .. عشتها طول السنين.

ومن على المقهى خرجت فرقة "شباب البحر" وهم خليل جاد الحق، وحاتم زهران، وعادل الروسى، والسعيد مصطفى، وأحمد عسل، وحسين عفيفى إلى الشارع وهم يرددون الكوبليهات الأربعة الأولى من اللحن فى وسط شارع شامبليون، وسرعان ما حفظت الجماهير التى شاركت فى الجنازة هذا اللحن.

وفى نهاية حواره مع جريدة الطلاب يؤكد عبدالرحمن عرنوس الذى كان وقتها معيدا بالمعهد العالى للفنون المسرحية أنه ليس شاعرا ولا زجالا وإنما يقول كلمات من الإحساس.

ويضيف : أنا أولا وأخيْرا ممثل، وزملائى هؤلاء مجموعة من الشباب المتحمسين من أبناء بورسعيد، الذين أوجدتهم الظروف فى القاهرة.

وأن كل أعمالنا من الشعب وقد كنت متأثرا بالإيقاع السريع، لكن فى هذا الموقف وجدت أن الجماهير عدلته إلى الإيقاع البطئ، وهو ما يؤكد أننا نأخذ من الشعب ونعطى الشعب.

***

كما خرجت من ريش مظاهرة عام (١٩٧٢) بعد حادث مقتل الروائى الفلسطينى غسان كنفانى وقد قاد هذه المظاهرة الكاتب الراحل د. يوسف إدريس وشارك فيها مئات المثقفين المصريين والعرب المقيمين بالقاهرة.

***

بالإضافة إلى ذلك كان للمكان دور إيحائى فى خروج أعمال إبداعية من على طاولاته ومنها رواية "الكرنك" لنجيب محفوظ وكذلك مسلسل "ليالى الحلمية" للسيناريست أسامة أنور عكاشة الذى كتب عن أشخاص حقيقيين كانوا من رواد ريش فشخصية "سليم البدرى" والتى جسدها الفنان يحيى الفخرانى هى شخصية محمد عفيفى باشا، أما شخصية العمدة والتى جسدها الفنان صلاح السعدنى فهو عمدة إحدى القرى المشهورة بالوجه البحرى، والفتوة صاحب المقهى "زين السماحى" والذى قام بدوره الممثل سيد عبد الكريم هو نفسه سليم حداد وهو رجل لبنانى شارك فى بعض مشاهد الأكشن فى السينما المصرية.

أما فاطمة رشدى ـ بطلة فيلم "العزيمة" أول فيلم واقعى مصرى من إخراج كمال سليم ـ فكانت تجئ إلى المقهى يوم الخميس من كل أسبوع لتقابل الكاتب عباس الأسوانى لكى يكتب لها مذكراتها الخاصة .

أما نجيب محفوظ فحكاية أخرى فقد ارتبط بريش لأكثر من ثلاثين عاما ، حيث أصبح مقهاه الرئيسى بعد إغلاق مقهى الأوبرا عام (١٩٦٣) الذى كان يجلس عليه مع توفيق الحكيم بانتظام ، وفى ريش وجد محفوظ ضالته ،حيث تحلق من حوله كل الأدباء خاصة جيل الستينيات جمال الغيطانى وسعيد الكفراوى ويوسف القعيد وإبراهيم منصور وسيد خميس ويحيى الطاهر عبد الله وأمل دنقل ونجيب سرور وعبدالحكيم قاسم ، الذين جاء أغلبهم من قرى ونجوع مصر باحثين عن التحقق الأدبى فوجدوا أنفسهم يجلسون على طاولة واحدة مع عميد الرواية العربية ، فخرجت مشاريعهم الأدبية من على نفس الطاولة برؤية جديدة ولغة مغايرة .

وكان محفوظ على حد تعبير مجدى عبد الملاك يأتى مرتين يوميا الأولى فى السابعة إلا خمس دقائق صباحا يجلس حتى الساعة الثامنة يشرب خلالها فنجان قهوة مع سيجارة ، ثم يمضى إلى جريدة "الأهرام" ، فتكون ريش هى محطته الأولى بعد خروجه من بيته .

أما المرة الثانية فكانت الساعة الخامسة ويظل جالسا حتى السابعة مساء يشرب خلال الساعتين فنجانين من القهوة السادة .

وكان محفوظ يجلس فى مكان ثابت مخصص له وهو المكان

الذى تعلوه صورته التى علقها له صاحب المقهى فى أواخر السبعينيات من الجدير بالذكر أن المقهى يضم عشرات الصور المعلقة على حوائطه لأشهر أدباء وفنانى مصر الذين كانوا من رواده الدائمين أمثال نجيب محفوظ وكامل الشناوى ومأمون الشناوى ومصطفى أمين وفاطمة رشدى وروزاليوسف ومحمد الفيتورى وعبدالوهاب البياتى وصلاح عبدالصبور وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم وجمال عبد الناصر والسادات وسليمان بك نجيب وأنور وجدى ونعمان عاشور وغيرهم.

وبالإضافة إلى موعده اليومى الثابت، كان لمحفوظ يوم محدد للقاء شلة الأدباء هو يوم الجمعة وتحديدا فى الساعة الرابعة مساء.

ويذكر مجدى عبد الملاك أن المناقشات أحيانا ما كانت تأخذ طابع الحدة خاصة من بعض أدباء جيل الستينيات خاصة يحيى الطاهر عبد الله الذى احتد أكثر من مرة على نجيب محفوظ لكن الرجل كان يقابل ثورته دائما بهدوء شديد لأنه كان هادئ الطبع جدا.

ويقول مجدى أما عن يحيى حقى فأنا أحتفظ له عندى بشريط نادر هو والشاعر محمد الفيتورى وهو عبارة عن حوار أجراه الفيتورى مع صاحب "قنديل أم هاشم" سأله فيه: ماذا تعنى لك ريش؟ فأجاب حقى:

"تعنى لى الملتقى ما بين السوربون والسيدة زينب".

وكلام يحيى حقى فى هذا الشريط الذى يحتفظ به صاحب المقهى ليس بغريب فهذا المقهى قد بنى فى الأساس على طراز

معمارى يتوافق مع ثقافة النخبة ـ وقت بنائه ـ حيث كانت هناك أعداد من المصريين نالوا من التعليم الأوروبى ما يؤهلهم لقيادة حركة فكرية واجتماعية وسياسية وكانوا بحاجة إلى مكان لتلاقح الأفكار، مكان يجمع بين البساطة والهدوء والمدنية الحديثة، لذا نرى أشهر مؤرخى الحركة الوطنية الحديثة عبد الرحمن الرافعى يقول عن ريش فى كتابه "تاريخ مصر القومى ١٩١٤ ـ ١٩٢١" :

"إن المقهى كان مكان تجمع الأفندية أى الطبقة الوسطى التى بدأت فى الظهور وكانت خطب الثورة.. بل وبعض التحركات السياسية تتردد بين روادها".

وفى موضع آخر يقول:

"عرفت فى هذا العهد أماكن يجتمع فيها دعاة الثورة وبعض المتحدثين عن شئونها وشئون البلاد العامة، وكانت الأفكار تصدر عنها والمسائل العامة تدرس فيها، وفيها تتخذ القرارات أو ترسم الأهداف التى يرى توجيه الحركة فيها".

الفيشاوى
رائحة اللحظة ومرايا التاريخ

يُعد حى "الجمالية" من أعرق أحياء القاهرة الفاطمية، وينسب إلى بدر الدين الجمالى - أحد أشهر وزراء الدولة الفاطمية الذى ترجع أصوله إلى الأرمن - وهذا الحىّ يشغل المنطقة الممتدة بين سور القاهرة عند باب النصر وباب الفتوح شمالا، والمشهد الحسينى وخان الخليلى جنوبا وبين شارع المنصورية شرقا وشارع المعز لدين الله غربا، وقد كانت هذه المنطقة هى مركز القاهرة الفاطمية منذ أن أنشأها القائد جوهر الصقلى قبل أكثر من ألف عام.

فقد كانت تحتوى على مقر الحكم "قصر الخليفة الفاطمى - وقصر الوزارة" وأقيمت فيها المدارس والمساجد، وفى فترة لاحقة أقيمت الوكالات التجارية، والقصور التى كان يملكها علية القوم من الأمراء والتجار وكبار الملاك مثل "بين القصرين" و"قصر الشوق"

و"السكرية" والتى اتخذ منها نجيب محفوظ مادة لأهم أعماله الروائية "الثلاثية" لأنه ولد فى هذا الحى عام ١٩١١ .

ويعتبر المشهد الحسينى الواقع فى الطرف الجنوبى الشرقى للحى ، واحدا من أهم مشاهد القاهرة التى ترجع إلى العصر الفاطمى ، فقد نقل إليه رأس الحسين سيد الشهداء من عسقلان فى عام (٥٤٩) هـ/ (١١٥٤)م.

ويعيش حول المشهد مجموعة من المجاذيب وهم من العاطلين الذين يعيشون على الصدقات والهبات ، وكانوا إلى وقت قريب يتجمعون على مقهى يعرف بمقهى المجاذيب .

وفى ليالى رمضان يكثر التوافد على المكان حيث يمضى كثير من الجمهور سهراته حتى طلوع الفجر فى المقاهى المنتشرة بالمشهد الحسينى، وأشهرها مقهى "الفيشاوى" والذى ذاع صيته منذ ثورة (١٩١٩) كمركز لالتقاء رجال الفكر والثقافة والسياسة .

والمقهى لا يختلف عن طبيعة المنطقة الجغرافية فهو يقع على رأس "خان الخليلى" وهو سوق خاص ببيع وتصنيع الانتيكات والأوانى المزخرفة والحلى المنقوش بنقوش إسلامية وفرعونية والبرديات لذا نجد المقهى تعرض على جوانبه الأكواب المزخرفة التى ترجع إلى تواريخ سابقة ، وعدد من المرايا الكبيرة ذات الحجم الضخم والمؤطرة ، بالإضافة إلى مجموعة براويز خشبية من الأرابيسك وشمعدانات نحاسية وفضية ، تتوسطها لوحة زيتية كبيرة لصاحب المقهي الحاج فهمى الفيشاوى وهو يمتطى صهوة جواده . ويشتهر

المقهى - وهى العادة الأشهر فيه منذ أكثر من خمسين عاما - بتقديم الشاى الأخضر والشيشة.

وفى عصره الذهبى كان من بين رواده مجموعة مميزة من الأدباء والسياسيين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: بيرم التونسى وحافظ إبراهيم والشيخ محمد عبد المطلب والزجال مصطفى حمام والملحن الشيخ زكريا أحمد والثنائى الفكاهى حسين الفار وسلطان الجزار وشاعر البؤس عبد الحميد الديب.

وقد زار المقهى شخصيات سياسية بارزة من ملوك وزعماء ورؤساء دول من بينهم "أوجينى" إمبراطورة فرنسا والتى زارت مصر وشاركت مع الخديو إسماعيل فى افتتاح قناة السويس الذى جاء بشكل أسطورىّ وتكلف ملايين الجنيهات.

وبعد انتهاء الحفل طلبت الإمبراطورة زيارة الأماكن الأثرية فى مصر ومنها "القاهرة الإسلامية" وبعد أن استمتعت بالآثار الفاطمية فى حى الجمالية جلست على "الفيشاوى" وتناولت الشاى الأخضر.

ويرجع البعض تاريخ المقهى إلى أكثر من مائتى عام فى حين يشير المستشرقون إلى أنه كان هناك مكان "الفيشاوى" مقهى آخر هو "البسفور" القديم فتم تغيير الاسم فقط، والدليل على ذلك وجود لوحات زيتية داخل كتاب "وصف مصر" الذى أعده علماء الحملة الفرنسية على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر، ويقال إن نابليون بونابرت قد جلس عليه وشرب مشروب الحلبة وأعجب بها أيما إعجاب. البعض الآخر يرجع تاريخ إنشائه إلى عصر السلطان

المملوكى محمد أبو الدهب وكان يطلق عليه وقتها مقهى "البسفور".

ورغم الضجة التى تحيط بالمكان نتيجة زيادة عدد الزائرين لضريح الإمام الحسين يوميا، وتكاثر عدد السائحين من جميع أنحاء العالم، وعلو صوت البائعين، إلا أن "الفيشاوى" كمكان يتميز بحس صوفى - ربما يوحى بذلك التكوين المعمارى للمكان الذى يجمع بين عبق التاريخ وفسيفساء اللحظة، بتموجاتها المختلفة أو بمعنى أدق فهو يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وعلى حد تعبير المستشرق والرحالة "ستراسين تسيركاس" فإن "أول ما يشعر به المرء فى ذلك المقهى، هو إحساسه بأنه داخل فجأة حيا مختلفا بل ربما حتى دنيا أخرى، وربما أيضا عصرا آخر؛ فهناك هدوء. وضوء معين أخضر فاتح سرور يبعث الطمأنينة إلى النفس".

وقديما كان "الفيشاوى" هو المكان المفضل لطلبة الجامع الأزهر ومنهم طه حسين وعلى عبدالرازق ومصطفى عبد الرازق، الذين كانوا يفضلون الجلوس عليه نظرا لأنه قريب من مكان دراستهم وثانيا لقربه من المكتبات التى تخصصت فى بيع الكتب الدينية والتراثية وأهمها مكتبة دار إحياء الكتب العربية لصاحبها ومؤسسها عيسى البابى الحلبى فى خان جعفر فى غرب المشهد الحسينى، وكذلك مكتبة زكى مجاهد، وكانت جميعها ملتقى لمحبى الثقافة والعلم.

***

ومن الأيام التى لا تنسى فى تاريخ مقهى "الفيشاوى" الأول من ديسمبر (١٩٦٨) حيث صدر قرار بإزالة المقهى من موقعه التاريخ ونقله إلى مكانه الحالى ـ وذلك لتوسعة المشهد الحسينى ـ، وكان هذا القرار سببا فى مرض الحاج فهمى الفيشاوى ـ صاحب المقهى ـ والذى توفى بعد ذلك بأيام قليلة.

ولعله يكون صاحب المقهى الوحيد الذى أقام له الأدباء حفل تأبين شارك فيه عدد من الصحفيين والنقاد والمفكرين والموسيقيين وذلك يوم (١٣) ديسمبر عام (١٩٦٨)، وقد دعت إليه رابطة الزجالين المصريين، حيث وجهت الدعوة إلى ما يقرب من خمسة آلاف شخص. فجاء احتفالا مميزا، وقد ألقى الزجال محمد عبد المنعم الشهير بأبى بثينة قصيدة زجلية فى رثاء الراحل.

***

وفى ليالى رمضان يتألق المقهى حيث يتوافد على المشهد الحسينى آلاف الزوار يوميا، وكثير منهم يحرص على قضاء سهرات رمضان على مقاهى الفيشاوى و"المجاذيب" حتى السحور يدخنون الشيشة ويشربون الشاى الأخضر، وهى عادة قديمة اشتهر بها الحى وبالتالى المقهى حيث يشاهد الجالسون مواكب دراويش الصوفية، وصخب الطبول والدفوف المصاحبة لها، حاملين الشارات والبيارق، المكتوب عليها كلمة التوحيد ولفظ الجلالة وأسماء الله الحسنى واسم الرسول "صلى الله عليه وسلم" والخلفاء الأربعة والأقطاب والأولياء.. والعمائم والأوشحة بالألوان: الأحمر والأسود

والأخضر .. كل حسب الطريقة التى ينتمى إليها ، وكان رواد المقهى ـ قديما ـ وأثناء المواكب يندمجون مع الحالة الصوفية ومع تزايد الوجد وتزايد إيقاع الدفوف يقومون للمشاركة فى الموكب بالذكر والتمايل وترديد الأوراد الصوفية.

وفى منتصف القرن التاسع عشر كان الفنان عبده الحامولى يحرص على الإفطار فى حى سيدنا الحسين، ثم يذهب ليتسامر مع أصدقائه على مقهى "الفيشاوى" وعقب أذان العشاء، يصعد إلى منارة جامع الإمام الحسين وينشد التسابيح ويردد التواشيح، فكانت الساحة الممتدة أمام الجامع والمشربيات والشرفات تحتشد بالناس، ومن هذه التواشيح :

لا أوحش الله منك يا شهر الصيام

لا أوحش الله منك يا شهر القيام

لا أوحش الله منك يا شهر العزائم

لا أوحش الله منك يا شهر الولائم

لا أوحش الله منك يا شهر الكرم والجود

وكان من المداومين على شرب الشاى الأخضر بالمقهى الشيخ على محمود الذى كان شغوفا بفن الموسيقى والطرب فكان يؤدى التسابيح قبيل صلاة الفجر كل يوم بنغمة موسيقية تختلف عن اليوم السابق والذى يليه فيوم السبت ـ مثلا ـ كانت نغمته "عشاق" ، ويوم الأحد نغمة "حجاز" ، ويوم الاثنين نغمة "سيكا" وهكذا، فقد كان الشيخ أحد رواد فن الإنشاد الدينى وقد تخرج فى مدرسته كثير

ممن أرسوا قواعد هذا الفن العريق أمثال الشيخ محمود على البنا والشيخ صديق المنشاوى، والشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ سيد النقشبندى الخ.

ولم تكن شخصية المقهى منفصلة عن الشخصية المصرية المرحة، فهو ـ فى الأساس ـ مكان للترفيه والترويح عن النفس، ويروى شيخ الصحفيين الراحل ونقيب الصحفيين الأسبق حافظ محمود فى كتابه "أسرار صحفية" بعض جلسات السمر فى "الفيشاوى" فى ليالى رمضان.

فيقول:

"أربع نكات رمضانية سمعتها وأنا فى الحلقة الثانية من عمرى.. النكتة الأولى عن بنت الذوات التى قالت لزميلتها فى منتصف شهر رمضان "رمضان السنة دى كويس خالص.. أول يوم فطرنا متعبناش، ثانى يوم فطرنا متعبناش قلنا نفطر على طول"

. تقابلها نكتة بواب العمارة التى تسكنها هذه البنت المفطرة وقد قال لزميله فى ثانى يوم من أيام رمضان: "هانت يا محمدين، فاضل عشرتين وتسعة ونعيد خلاص!" والنكتة الثالثة نكتة ابن الذوات أيضا الذى قال لمن رآه فى ظهيرة يوم من أيام رمضان يحتسى كأسا: "لا تؤاخذنى.. أصلى باسلى صيامى بكاسين!" تقابلها نكتة زوجة البائع الساذجة التى كان زوجها كلما توفر له فائض من دخله قبل شهر رمضان اشترى شيئا من اليامشين، وكلما سألته هذه الزوجة عن هذا الخير الكثير قال لها: "دا عشان رمضان لما ييجى نأكل نص

الياميش ونتصدق بالنصف الآخر" .. وذات يوم فاجأت الزوجة زوجها بأن الشيخ رمضان حضر وأخذ الياميش كله!

ثم علق "حافظ محمود" على هذه النكات قائلا:

"كانت هذه النكت جزءا من سيل النكت التى كان نجوم الفكاهة يسهرون فى مقهى الفيشاوى التى على إلقائها فى أسماع الحاضرين على مدى ليالى رمضان الثلاثين أو التسع والعشرين ولو دققت فى هذه النكات قليلا تجد أنها تمثل الثورة الاجتماعية التى كانت تجيش فى وجدان الشعب.

كان الشعب يرى أن "الذوات" أى أبناء الطبقة الغنية هم أقل الناس حرصا على الصيام، وكان الشعب يهاجم تقصيرهم الدينى بهذه النكت التى تبرز فى نفس الوقت إقبال الفئات الشعبية على الصيام والزكاة فى شهر رمضان. وليس من شك أن هذه النكت كان فيها شىء من المبالغة، فالنكتة إن تعدت عنصر المبالغة لم تعد نكتة".

كانت "الفيشاوى" قديما أشبه بـ"السامر الشعبى" الذى كان يقام فى القرى المصرية ويقوم على سرد الحكايا والبطولات الشعبية كأبى زيد الهلالى وعنترة يلقيها شاعر الربابة، فليس شهرة المقهى فى شايه الأخضر أو "الشيشة التنمباك" وإنما من طريقة السهر فيه وطقوسه الاحتفالية المستقاة من عناصر شعبية قديمة متوارثة.

فقد كانت هناك فرقة ثابتة يوميا يقدمها فنانا الفكاهة "الجزار" و"الفار" اللذان يتقارضان النكت بطريقة الصد والهجوم ـ وذلك من بعد صلاة العشاء حتى السحور ـ وأحيانا يكسر الجمهور "حاجز

الإيهام" بالتعبير المسرحى، ويقترح عليهما مادة معينة للتنكيت، وعادة ما تكون هذه المقترحات من مشاكل واقعية كالروتين والبطالة والخلافات الزوجية والمواصلات. وكان "الفار" و"الجزار" يملكان حاسة تحويل التفاصيل إلى مادة ساخرة متعددة الدلالة وبلغة راقية مهذبة رغم ما فيها من نقد اجتماعى لاذع.

وفى أوقات الأزمات السياسية تتحول النكات إلى هذا الاتجاه، فى محاولة للتخفيف عن الجمهور.

كما كان "الفيشاوى" أول مقهى ترتاده النساء التقدميات من أهل الفن والأدب.

وقد وصف "البرت فارمان" فى يومياته الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر فى نهاية عصر إسماعيل، وكان فارمان قنصلا عاما للولايات المتحدة الأمريكية منذ عام (١٨٧٦) وقضى بمصر خمس سنوات ـ وصف ليالى رمضان ومنها حركة المقهى الشعبى وينطبق على هذا الوصف مقهى الفيشاوى أيضا:

"وعندما توشك الساعات المضيئة من النهار ـ شديدة الحرارة ـ على الانتهاء، ينتظر الأهالى فى صمت دوى مدافع القلعة، وتجلجل أصوات المؤذنين والظمأ هو أول ما يجب إطفاؤه بجرعة من ماء النيل المقدس وتشعل السجاير ويعد البلح والفاكهة والمشروبات المرطبة، ثم ينهمك الجميع فى أطايب الطعام.. وفى رمضان تؤجل الأعمال الشاقة، والمطاعم والمقاهى فى ذروة رواجها، وتزدان الشوارع والبيوت والمساجد بالأنوار".

وكان لنجيب محفوظ طقوسه الخاصة مع مقهى "الفيشاوى" فى رمضان، وقد حكى هذه الطقوس فى حواره مع محمد سلماوى بـ"الأهرام" بتاريخ (٢٣) يناير (١٩٩٤) فيقول: "أول حرية ذقتها كانت فى رمضان حين أصبح يسمح لى لأول مرة أن أخرج مع الأصدقاء وأن أسهر معهم فى الحى فنلعب ونلهو بعد أن كنا جميعا مكبلين طوال أيام السنة حتى أننا إذا لعبنا تحت البيت كانوا يراقبوننا من الشبابيك أما فى رمضان فقد أعطونا الحرية كاملة فكنا ننزل بالفوانيس فنلف وندور فى ميدان بيت القاضى والحسين ونسهر إلى حد لم يكن مسموحا من قبل.

أما فى سنى الكبيرة فقد كانت السهرة بمقهى الفيشاوى مع الأصدقاء لا تدانيها متعة أخرى، لقد كنا نذهب بعد الإفطار ونظل بالفيشاوى حتى السحور لنتناول سحورنا هناك ونعود مشيا على الأقدام إلى العباسية حيث كنا نسكن عن طريق الجبل فكان ذلك يحضرنى نفسيا للصيام والتأمل فى اليوم التالى. فلم يكن هناك فى هذا الطريق إلا المقابر والخلاء.

فى ذلك الوقت لم يكن هناك تلفزيون ولا فوازير ولا مسلسلات وكانت متعتنا فى مقهى الفيشاوى حيث كان البعض يلقى آخر النكات والبعض الآخر "يدخلون لبعضهم قافية". وكان ذلك فى جو من الود والصداقة والبهجة والسرور يستمر حتى الصباح ومن الطرائف التى شهدها مقهى الفيشاوى أنه كان من رواده شاعر البؤس عبد الحميد الديب الذى اشتهر بهذا اللقب لأنه لا يملك حتى

قوت يومه فكان يعيش حياة بائسة كمتصعلك يعيش على ما تجود به أيدى الأصدقاء من المثقفين، وذات يوم توسط له بعض المثقفين فألحقوه بالعمل فى وزارة الأوقاف وكان الوزير وقتها هو عبد الحميد عبد الحق - ولكن تساءل الأصدقاء - كيف يذهب الديب إلى عمله بملابسه الرثة البالية التى لا تصلح لموظف حكومى، فما كان منهم إلا أن اشتروا له بدلة جديدة لكى يسافر ويتسلم وظيفته بمحافظة القليوبية، وأقاموا له احتفالا لتوديعه وتمنوا له التوفيق فى عمله الجديد.

وفى اليوم التالى فوجئوا به يجلس على المقهى مرتديا البدلة الجديدة راضيا أن يعيش حياة الصعلكة رافضا أن يكون موظفا عموميا.

وقد وصف نجيب محفوظ "الديب" ذات يوم قائلا:

"كان الديب صعلوكا كبيرا، حياته هى الشعر فقط، وليس مهما أن يسكن أو يأكل أو يرتب أمور معيشته، أو يبحث عن مصدر رزق من أى نوع، وإذا ما حل النوم فإنه ينام فى أى مكان، وكان مغرما بالنوم فى المراحيض العمومية. لم أختلط بالشاعر الديب جيدا، وأحيانا كنا نلتقى وأسمع منه قصيدة جديدة، أما بؤسه وشقاؤه وحكايات صعلكته المثيرة، فكنت أعرفها عن طريق الآخرين، كما كنت أعرف أنه شخصية ظريفة وساخرة محبوبة من أصدقائه"

مقهى عرابى
من "الفتونة" إلى "الكرنك"

ارتبط "نجيب محفوظ" فى بداية شبابه بمقهى "عرابى" بالعباسية حيث كان قريبا من بيت الأسرة التى انتقلت إليه من حى الجمالية الذى ولد ونشأ فيه وقضى فيه أيام طفولته وصباه.

وترجع تسمية المقهى إلى "كامل عرابى" فتوة الحسينية الذى قضى فى السجن (٢٠) عاما بعد أن كسّر وحطم وأطاح بعين أحد الأشخاص، وكانت هذه الحادثة سببا فى إلغاء نظام "الفتونة" فى الثلاثينيات من القرن الماضى.

وقد تحدث "محفوظ عن علاقته بهذا المقهى فى الكتاب الذى أعده الناقد رجاء النقاش عن أحاديث مطولة معه عن حياته وذكرياته وحمل عنوان "نجيب محفوظ.. صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته" فيقول "محفوظ" عن بداية تعارفه بالمكان:

"تعرفت على عرابى بعد خروجه من السجن وكنا - أنا وأصدقائى - نذهب للجلوس فى مقهاه، وكان أحيانا يتشاجر معنا لأنه كان محبا للهدوء والنظام، ويكره أن يصفق أحد بيديه لاستدعاء الجرسون وكان صوتنا يعلو كثيرا وندخل فى فاصل من المشاغبة البريئة. فلما يضيق بنا يتجه نحونا ويقول فى غضب: هذا مقهى أم مدرسة أيها الأفندية؟ من الغد لا تدخلوا المقهى.. فننتقل إلى مقهى الفقى، وهى مقهى صغير فى آخر العباسية وبعد عدة أيام يمر علينا فى بيوتنا، يصالحنا ويعلن انتهاء فترة الطرد، ونعود إليه من جديد".

ويضيف محفوظ: "فى أيام الانتخابات كان مقهى عرابى يتحول إلى معسكر لأنصار الوفد، لأن عرابى كان وفديا، وكان كبار السياسيين من أهل الحسينية مثل الشواربى باشا وأحمد ماهر باشا يخطبون ود عرابى حتى يساعدهم فى كسب أصوات الناس بما يتمتع به من تأثير جماهيرى رهيب ورغم السنوات العشرين التى قضاها فى السجن إلا أنها لم تؤثر على شخصيته، وكان شكله وتركيبته يوحيان بالزعامة، وفيه هيبة سعد زغلول، وكان فى صوته شموخ لأنه تعود أن يأمر فيطاع".

إذن كان عرابى هذا كما يصوره محفوظ شخصية ذات تأثير قوى فى محيطها الاجتماعى، وبمنطق ذلك الزمان الذى كانت فيه الفتوة إحدى تجليات القوة فى ذلك العصر، وكان الفتوات بإمكانهم فرض الأتاوات على التجار فى الأسواق والمحلات، وكانت الحكومة -

فى كثير من الأحيان تساعدهم على فرض هيمنتهم على الحوارى الشعبية، فكان لكل حى فتّوة خاص به.

وكانت شلة العباسية التى كانت نواة لما عرف بعد ذلك بـ"الحرافيش" تضم فى بداية تكوينها كلا من مصطفى كاظم شقيق السيدة تحية كاظم زوجة الرئيس عبدالناصر، وأحمد الحفناوى وهو غير الموسيقار المعروف وحسن عاكف والألفى مأمون، والمعلم كرشو، ونجيب الشويخى الذى وصفه محفوظ بأنه شرير الشلة فقد اعتدى بالضرب على معظم أعضائها ومهددا أى عضو من الشلة يختلف معه بعدم الخروج من بيته حتى لا يتعرض للضرب وكان من بين أعضاء الشلة أدهم رجب وهو طبيب هاجر منذ أكثر من ستين عاما إلى الولايات المتحدة الأمريكية ومازال مقيما فيها حتى الآن وقد تجاوز المائة عام.

ثم بعد ذلك تكونت الحرافيش من خلال مجموعة من الأدباء الذين فازوا بالجائزة التى أقامتها وزارة المعارف فى بداية الأربعينيات فى القصة وهم على أحمد باكثير ويوسف جوهر وعادل كامل ومحمد عفيفى ونجيب محفوظ.

وانضم إليهم بعد ذلك الفنان أحمد مظهر والمخرج توفيق صالح.

وقد كان محفوظ ورفاقه يلتقون فى مساء كل يوم خميس من كل أسبوع أما باقى الأيام فكان المقهى يمتلئ بالزبائن من كافة طوائف المجتمع، ويذكر محفوظ فى حديثه مع رجاء النقاش أن مقهى "عرابى" كان أكثر المقاهى التى كان يجلس عليه الضباط الأحرار

قبل الثورة ومنهم عبد الحكيم عامر وعبداللطيف البغدادى وجمال سالم فيقول :

لم يخطر على ذهنى مطلقا أن يقوم الجيش المصرى بانقلاب عسكرى يطيح فيه بالحكم الملكى عام (١٩٥٢) ، وذلك على الرغم من أن سهرات مقهى عرابى بالعباسية قبيل الثورة كانت تضم عددا من الضباط الأحرار منهم عبد اللطيف البغدادى وجمال سالم. وهذان الضابطان لم ألتق بهما لأنهما كان يفضلان الذهاب إلى المقهى طوال أيام الأسبوع باستثناء يوم الخميس موعد سهرتنا الأسبوعية ، حيث الازدحام والصخب ، حتى أننا كنا نسميه يوم الزيطة ، كان البغدادى وجمال سالم يجلسان طويلا مع شلتنا ، ومع ذلك لم يشعر أحد بالتحركات التى تتم داخل الجيش أو بأن هناك تخطيطا للثورة ، وكان عبد الحكيم عامر يرتاد المقهى أحيانا .."

ويضيف محفوظ :

"وأذكر أحد أصدقاء شلتنا وهى شخصية كنا نسميها باسم المعلم كرشو وهو أحد أصدقاء شلة العباسية ، ومن رواد سهرة عرابى وقد تخرج من مدرسة الزراعة العليا ، وكان من بين الذين أعطتهم الحكومة عشرين فدانا لزراعتها فى الثلاثينيات ، وكان يتمتع بالثراء خاصة أنه ورث عن والده عمارتين، وقد أخبرنى المعلم كرشو ذات يوم أنه دخل المقهى فوجد عبد الحكيم عامر يجلس كانت تربطهما ـ عامر وكرشو ـ صداقة قوية ، وكان عامر يومئذ يجلس فى انتظار صديقه عبدالناصر وجلس معه عدة مرات . وكان من بين الضباط

الأحرار أيضا سعد حمزة الذى اعتاد بخلاف البغدادى وسالم على حضور سهرة الخميس، وظل فى صفوف الجيش حتى بلوغه سن التقاعد، فعينوه رئيسا لإحدى المدن" ..

كل هؤلاء الضباط .. يتحدثون معنا فى كل شؤون الحياة، ونعرف أسرار حياتهم الشخصية ولكننا لم نعرف أبدا السر الخطير الذى يدبرونه فى الخفاء.

ومن المؤسسين لشلة العباسية حسن عاكف الذى أصبح - بعد ذلك - الطيار الخاص للملك فاروق الذى اختاره ليقود طائرته الخاصة، وكان من الشخصيات المهمة ذات النفوذ الواسع لكنه كان يتحين الفرصة لكى يذهب إلى مقهى "عرابى" ليجلس مع أصدقاء الصبا، الذين كانوا يدركون خطورة موقعه السياسى، فكانوا يجلسون داخل المقهى حين يكون معهم.

وعندما قامت الثورة حاول حسن عاكف أن يقوم بتهريب الملك للخارج وتم إلقاء القبض عليه قبل أن ينفذ محاولته، وتم تقديمه للمحاكمة التى كما يقول عنها محفوظ: "دافع فيها عن موقفه برجولة فقد قال إنه يعتبر الملك فاروق مولاه، وإنه لا يعرف شيئا عن أهداف ونوايا القائمين بالثورة، ورأى أن من واجبه أن يحافظ على الرجل الذى عينه لخدمته ويعتبره حاكما لمصر. وكان حسن عاكف من رجال الملك القلائل الذين أفرج عنهم بعد أن اعتقلتهم الثورة، ومات حسن عاكف فى أواخر الثمانينيات ولتأثرى بشخصيته قدمته فى رواية "صباح الورد" وعلى مقهى عرابى - أيضا - التقى

محفوظ البطل الحقيقى لروايته "الكرنك" وهو حمزة البسيونى مدير السجن الحربى وقتها : وفى ذلك يقول : "أما فكرة رواية الكرنك فقد وردت إلى ذهنى وأنا أستمع إلى أصدقاء مقهى ريش وهم يقصون على ما لاقوه من صنوف التعذيب أثناء فترة اعتقالهم، قلت لنفسي لماذا لا أسجل هذه الأحداث في عمل روائى لألفت الأنظار لهذه القضية؟ واختمرت فكرة الرواية فى رأسى بعد أن قابلت اللواء حمزة البسيونى الذى كان مديرا للسجن الحربى، جلست أتأمل فى ملامحه التى لا تظهر عليها علامات الخشونة والجفاء بما يتفق مع ما كان مشهورا عنه من غلظة فى التعامل.. وكان وقتذاك قد خرج من الخدمة ويحاول الرجوع إليها مرة أخرى.

رأيت حمزة البسيونى مرة ثانية فى مقهى "عرابى" حيث كنت جالسا، وإذ به يدخل المقهى ويقترب منى ويقول فى لهجة محايدة "سعيدة يا أستاذ" ثم جلس على منضدة مجاورة وبعد أيام لقى مصرعه فى حادث تصادم وهو فى طريقه إلى الإسكندرية.

ومن خلال ما سمعته عن حمزة البسيونى وأفعاله مع المعتقلين فى السجن الحربى، وما حكاه لى أصدقاء مقهى "ريش" بدأت فى التخطيط للرواية".

مقهى أوبرا
جامعة مفتوحة

فى منتصف الخمسينيات جاء "جورج بهجورى" إلى القاهرة يبحث عن ربة الفن فى حوارى وشوارع العاصمة بعد أن ندهته النداهة من صعيد مصر فجاء محملا بموروث ثقافى متعدد الملامح، ولم يكن يملك إلا ريشة وورقة بيضاء. زاده اليومى التجوال فى الشوارع والتأمل فى وجوه البشر بحثا عن فضاءات لخطوط تشكيلية مغايرة.

وذات ظهيرة قائظة أخذته قدماه إلى مقهى "أوبرا" بميدان العتبة وهناك اختار ركنا قصيا بخجله الريفى، ربما، وربما أيضا ليرصد تفاصيل المكان دون أن يراه أحد أو يزعجه، فإذا به أثناء اندماجه فى رسم لوحاته تقع عيناه على "نجيب محفوظ" الذى كان يدوام على الذهاب للمقهى صباح كل يوم جمعة ويتحلق من حوله المريدون من

الأدباء والمثقفين. فتقرب البهجورى بأوراقه ورسومه، والتى كانت عبارة عن تخطيطات تشكيلية لبعض أبطال روايته من الحرافيش والجبلاوى. وفى أحد المرات ـ وبعد أن تعمقت العلاقة بينهما ـ اقترب بهجورى من الأستاذ بعد أن انفضت الندوة الإسبوعية وقال له:

أنا مسافر باريس أرسم هناك من أجل العالمية".

فأجاب محفوظ:

"خليك محلى هنا وكلما زادت المحلية أصبحت عالميا".

***

ومنذ منتصب الأربعينيات كان نجم نجيب محفوظ الأدبى قد بدأ فى التصاعد خاصة بعد خروجه من مرحلة كتابة الروايات التاريخية إلى مرحلة الروايات الواقعية والتى بدأت برواية "القاهرة الجديدة" والتى كتبها عام (١٩٤٥)، ثم "خان الخليلى" عام (١٩٤٦)، و"زقاق المدق" عام (١٩٤٧)، وهو ما لفت إليه نظر القراء والنقاد على حد سواء نظرا لحسن تصويره لحياة الناس فى هذه المنطقة من القاهرة على حد تعبير د. فاطمة موسى فى كتابها "نجيب محفوظ وتطور الرواية الغربية" "حيث استطاع أن ينقل إلى القارئ صورة حية لجو حى خان الخليلى، أضحت خالدة فى ذاكرة قراء العربية.

ولا جدال فى أن اسم زقاق المدق هو أول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذا الموضوع، إلا أن لخان الخليلى مكانة خاصة فى هذا الصدد، فهو أول ثمرة لانفعال الكاتب فنيا بالحى الذى ارتاده سنوات بحكم

عمله موظفًا في وزارة الأوقاف، كان خان الخليلي بمثابة استكشاف للإمكانيات الفنية للحي القديم، وتلتها رحلة أخرى في الزقاق".

ونتيجة للشهرة التي حصلت عليها هذه الأعمال انجذب عدد من الشباب الذين كانوا يحاولون الكتابة في ذلك الوقت - منتصف الأربعينيات إلى جلسته بكازينو أوبرا والذى كان يطل وقتها على ميدان إبراهيم باشا - بالعتبة ومن هؤلاء القاص يوسف الشاروني والذى يحكي عن بداية تعرفه بنجيب محفوظ وبندوته الأسبوعية قائلا: "في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي، وعقب تخرجي من قسم الفلسفة بكلية آداب القاهرة، تعرف جيلي من طلبة الكلية وطلبة كلية الحقوق المجاورة: بدر الديب، محمود العالم، توفيق حنا، عباس أحمد، أحمد بهاء الدين، فتحي غانم، مصطفى سويف، فاطمة موسى، لطيفة الزيات، أنجيل بطرس، محمد عودة، حسن فتح الباب، على نجيب محفوظ من رواياته التي كانت تنشرها تباعا مكتبة مصر: الروايات التاريخية الثلاث ثم القاهرة الجديدة وخان الخليلي وزقاق المدق والسراب وبداية ونهاية.

فانبهرنا بهذا الكاتب الذى يقدم لنا مصر المعاصرة بإيجابياتها وسلبياتها بهذا الأسلوب المتميز.

ونما إلى علم البعض منا أنه يلتقي أصدقاءه صباح كل جمعة بمكان يعرف بكازينو أوبرا. فسعينا إلى لقائه واستمتعنا بصحبته التي كانت تتميز بضحكته المجلجلة وسط أصدقائه المبدعين أذكر منهم: عبدالحميد جودة السحار (الأديب وأحد الممولين للجنة

النشر للجامعيين مع شقيقه سعيد السحار" والكاتب الفكاهى محمد عفيفى، وأنور المعداوى، ويوسف السباعى الذى كان يحضر بزيه العسكرى وينتحى جانبا بنجيب محفوظ أو عبدالحميد جودة السحار يتناقشان فيما لا نعرفه ثم ينصرف.

أما أصغر الحضور فكان شابا ربما لم يتجاوز سن المراهقة ـ طالب فى المرحلة الثانوية ولم تكن المرحلة الإعدادية اخترعت بعد ـ يحضر مستمعا بشغف لما يدور من مناقشات ويلقى من نكات يقهقه لها نجيب محفوظ قهقهته العالية المرحة ـ هذا الشاب كان ماهر شفيق فريد الذى أصبح فيما بعد أحد نقادنا ومبدعينا الكبار، كل ما كان نعرفه عنه وقتئذ أن أباه ناظر إحدى المدارس الثانوية ومثقف أسهم فى الترجمة الأدبية من الإنجليزية إلى العربية وهذا ما حدث أيضا مع الأجيال التالية مثل جيل الستينيات ومنهم الناقد د. صبرى حافظ الذى يشير فى كتابه "سرداقات من ورق" وفى معرض حديثه عن الكاتب الراحل صالح مرسى إلى أن بداية تعرفه عليه كانت فى ندوة محفوظ التى كان تعقد فى كازينو أوبرا حيث قال: "بدأت معرفتى بصالح مرسى فى أواخر الخمسينيات فى ندوة نجيب محفوظ فى كازينو أوبرا الذى كان وقتها فى ذروة عطائه الأدبى وقد فرغ من نشر إنتاجه الصرحى العظيم "الثلاثية" وتربع معها بحق على عرش الرواية العربية. وكانت ندوته بؤرة الاستقطاب الرئيسية لكل المتطلعين إلى أدب جديد، ولكل الذين يدركون قيمة الكتابة الجادة والأدب الجيد الأصيل، لم يكن نجيب محفوظ من نجوم الحياة الثقافية وقتها. فقد احتكر يوسف السباعى

وأمثاله كل الأضواء، ولكن ألق الأضواء لم يعش يوما رؤية الحياة الثقافية الجادة، ولم يشتت بوصلتها. وكنت وقتها وفدت إلى القاهرة لدخول الجامعة، وبعد سنوات طويلة من إدمان القراءة فى الريف تدرجت فيها من إدمان قراءة رواية أرسين لوبين، وشرلوك هولمز، ومغامرات الأومباشى عكاشة والشاويش درويش، إلى قراءة مترجمات عبد العزيز أمين من الروايات العالمية وصولا إلى قراءة الأدب العربى الحديث والتعرف على نماذجه الجيدة التى كان ينشرها الكتاب الذهبى فى الخمسينيات وكنت قد اكتشفت أعمال نجيب محفوظ وفتنت بها فى آخر دراستى الثانوية، فلما قدمت إلى القاهرة بعد انتهاء دراستى الثانوية عام (١٩٥٧) كان أول ما فعلته قبل التردد على قاعات المحاضرات بالجامعة هو التردد على استحياء على ندوة نجيب محفوظ فى كازينو أوبرا والتى سرعان ما سحرنى مناخها الودى الأليف".

كانت هذه الندوة مدرسة كاملة بأى معيار من المعايير وحينما استرجع دورها فى تكوينى الثقافى الآن، أشعر أنها قامت بالنسبة لى وقطاع كبير من شباب المثقفين فى هذا الوقت، بدور الجامعة حينما كانت الجامعة قد بدأت فى التخلى عن دورها كمؤسسة لتعليم الطلاب أسس التفكير الحر، والحوار الموضوعى، واستقلال الرأى ومقارعة الحجة بالحجة فبينما كانت الجامعة تنحو صوب الاعتماد على التلقين، وتميل نحو الرأى الواحد أو انعدام الرأى وتعادى أصحاب الرأى المخالف، كانت ندوة نجيب محفوظ ومعها ندوات أخرى وبؤر كثيرة للثقافة فى هذا الوقت، ساحة للحوار الجاد والرأى الحر".

هذه شهادة د. صبرى حافظ وأظن أنها تعبر عن رأى جيل بأكمله حيث لم تكن الندوة مجرد مكان للتعارف بقدر ما كانت مجالا لتلاقح الأفكار والرؤى فى السياسة والأدب والفن والحياة، فانفتحت آفاق أخرى للكتابة، واتسعت أحداق المغتربين القادمين من القرى والدساكر لتواجه اتساع المدينة وشهوتها فى احتواء العابرين.

أما المفكر سلامة موسى (١٨٨٧ - ١٩٥٨) وهو أول ناشر لنجيب محفوظ، فقد نشر له رواية "عبث الأقدار": فى دار "المجلة الجديدة" التى كانت يملكها سلامة موسى، وأعطاه أجره عن تأليفها كما ذكر محفوظ فى أكثر من موضع خمسمائة نسخة.

ومع صدور رواية "بين القصرين" (١٩٥٧) فوجئ محفوظ بمقال منشور فى يوميات الأخبار لسلامة موسى يشيد بالرواية، وفى تلك الأثناء قام المفكر الكبير بزيارة لشلة "أوبرا" وجلس معهم وقتا طويلا تناقشوا فيه حول أفكاره التقدمية وحول إبداعهم الجديد. وقد حضر "موسى" ليهنئ تلميذه القديم الذى كان هو أول من اكتشف موهبته الروائية.

ومن الأشياء الطريفة التى رواها "محفوظ" فى أحاديثه مع رجاء النقاش فى كتابه "نجيب محفوظ صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته" أنه أثناء نشره لرواية "أولاد حارتنا" مسلسلة فى "الأهرام" - وكان فى تلك الفترة من رواد كازينو أوبرا وفى الندوة الأسبوعية لاحظ وجود فتاة جديدة وعرف أنها ابنة أخت الدكتور حسن الخولى الممثل الشخصى للرئيس عبد الناصر، وبعد إحدى

الندوات التى حضرتها همست فى أذنه بأن سيارة محملة بمجموعة من العسكر ومنهم ضابط برتبة كبيرة ذهبت إلى بيته لاعتقاله، وقبل أن تصل إلى منزله جاءها الأمر بالعودة وعدم إكمال المهمة، ولم تذكر له الفتاة تفاصيل أخرى، ولا يعرف مدى صدق هذه الواقعة ولم يحاول التأكد من صحتها ولكن أثناء نشر الرواية كانت زوجته تشكو له من وجود مراقبة مستمرة لها، وأن أشخاصا لا تعرفهم يتتبعون حركتها، وحتى أثناء تجوالها فى السوق لشراء احتياجات البيت . ويضيف محفوظ : "وربما لو كنت أنتبه أثناء سيرى فى الطريق لاكتشف أننى مراقب، ولكن الأفكار التى كانت تدور فى ذهنى وأنا أمشى كانت تشغلنى عن مثل هذه الأمور" .

***

وعلى مقهى "أوبرا" أيضا كان اللقاء الأول الذى التقى فيه محفوظ ناقده الأول سيد قطب الذى كان يواظب على حضور الندوة الأسبوعية فى الأربعينيات . فمع صدور رواية "كفاح طيبة" عام (١٩٤٤) كتب قطب أول مقالة نقدية عن محفوظ، وكان من الممكن أن يستمر تجاهل الحياة الثقافية ـ ببعدها النقدى لأعماله، لولا هذا المقالة التى كتبها قطب والذى كان يعده البعض ـ فى ذلك الوقت ـ التلميذ الأنجب فى مدرسة العقاد الأدبية ـ فقد أعلن فيها عن ميلاد روائى يملك ناصية الكتابة وتحريك الحدث الروائى باقتدار، وهذا ما أعلنه قطب فى الثناء على القصة حيث قال عنها : "تغلبنى حماسة قاهرة لها، وفرح جارف بها، هذا هو الحق، أطالع به القارئ

من أول سطر وأستعين على رد هذه الحماسة، والعودة إلى هدوء الناقد واتزانه!!

ولهذه الحماسة قصة لا بأس من إشراك القارئ فيها: فاليوم أتلفت فأجد بين يدىّ القصة والملحمة، فى عمل فنى واحد فى "كفاح طيبة" فهى قصة بنسقها وحوادثها، وهى ملحمة - وإن لم تكن شعرا ولا أسطورة - بما تفضيه فى الشعر إلى ملحمة".

وأضاف قطب في مقاله: "ولو كان لى من الأمر شيء لجعلت هذه القصة فى يد كل فتى وكل فتاة ولطبعتها ووزعتها على كل بيت بالمجان ولأقمت لصاحبها الذى لا أعرفه حفلة من حفلات التكريم، التى لا عداد لها فى مصر، للمستحقين وغير المستحقين".

وقد كتب قطب بعد ذلك عن رواية "القاهرة الجديدة" فور صدورها عام (١٩٤٥) مؤكدا أن الرواية بمثابة العتبة الأولى للرواية الواقعية التى صار محفوظ عميدا لها..

هكذا كانت العلاقة بين نجيب محفوظ وسيد قطب، فى بداية الأمر علاقة أدبية تقوم على فهم الأفكار وسبر أغوارها وتفحص دلالتها ومعانيها، لكن بعد تحولات قطب الفكرية، وتزعمه لحركة الإخوان المسلمين - باعتباره أحد مراجعها الكبرى - انقطعت علاقة محفوظ به، ولم يزره إلا مرة واحدة بعد عودة قطب من رحلته إلى أمريكا والتى تغيرت فيها أفكاره مائة وثمانين درجة.

مقهى بترو
فى صحبة محفوظ والحكيم

تأثر ظهور المقاهى فى مدينة الإسكندرية بوجود الجاليات الأجنبية بها خاصة "اليونانيين" الذين كانوا يمتلكون مجموعة من المقاهى التى بنيت على الطراز الأوروبى وكانوا يقدمون فيها الخمور والمشروبات الروحية للزبائن، كما كان يصاحب تقديم تلك المشروبات فقرات راقصة وفقرات غنائية، وفى منتصف القرن التاسع عشر اتجه بعض المصريين من أبناء الإسكندرية إلى فتح مقاه مشابهة مزودة بمطربين ومطربات وراقصات، ثم تطور الأمر فتحولت تلك المقاهى إلى منتديات للغناء والموسيقى، كما كان الحال فى بعض المقاهى فى أحياء الإبراهيمية والعطارين واللبان وغيرها.

وإن اختلف التوجه الاجتماعى والاقتصادى بين المقاهى التى كان يملكها الأوروبيون والأخرى والتى يمتلكها مصريون، فاليونانيون

والأرمن كانوا ينظرون للمقهى نظرة تجارية، فى حين كان المصريون يعتبرونه مكانا للتسلية وقتل الفراغ والمتعة أيضا، وإن اختلفت المقاهى من حيث مرتاديها فهناك "مقاهى" الأحياء الراقية التى كانت أشبه بـ"الكازينو" أما مقاهى الطبقة الوسطى المتوسطة فتقل فى الدرجة وفى نوعية الطلبات المقدمة فيها .

وحسب ما جاء فى بيانات إدارة الإحصاءات المركزية بمحافظة الإسكندرية فى (١٥) ديسمبر (١٩٩٥) ، فقد وصل عدد المقاهى الشعبية بها حوالى (٨٠٤) مقاهٍ، وأظن أنه تضاعف خلال العشر السنوات الماضية.

ومن أشهر مقاهى الثغر مقهى "بترو" بسيدى بشر والذى أنشئ فى منتصف القرن التاسع عشر وشهد أحداثا اجتماعية وسياسية مهمة وجلس عليه كبار المفكرين والمبدعين ورجال السياسة والمال، على إحدى طاولاته جلس "سليم تكلا" ليخطط لأول أعداد جريدة "الأهرام" التى صدرت فى (٢٧) ديسمبر (١٨٧٥) ، وكان قد جاء إلى مصر قبل ذلك بأشهر قليلة مهاجرا من الشام، تراوده فكرة إنشاء جريدة عربية بعد ما علم أن فى مصر نهضة ثقافية وفكرية بعدما كثرت فيها المدارس والمعاهد والمنتديات، وبالفعل حصل على ترخيص من الخديو إسماعيل حيث طلب منه فى خطاب رسمى : "إنشاء مطبعة حروف تُسمى الأهرام تشمل على التلغرافات والمواد الزراعية والمحلية،وكذا بعض كتب كمقامات الحريرى، وبعض ما يتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والأشياء التاريخية والحكمة فى النوادر والأشعار والقصص الأدبية" .

وبالفعل صدرت "الأهرام" في أعدادها الأولى بالإسكندرية كجريدة أسبوعية تباع بنصف فرنك "ما يعادل قرشين بعملة ذلك الزمن".

وعلى مقهى "بترو" كان يجلس توفيق الحكيم ونجيب محفوظ في أشهر الصيف، حيث كانا يفدان إليه في الحادية عشرة صباحا فيلتف حولهما الأدباء القادمون من القاهرة لقضاء الإجازة الصيفية مثل ثروت أباظة وعبدالرحمن الشرقاوى وغيرهما من كبار الأدباء، وكذلك كان يلتف من حولهم أدباء الإسكندرية من مختلف الأجيال، وبعد هدم مقهى "بترو" انتقلت الندوة إلى الشانزلزيه بمنطقة "لوران" ثم انتقلت إلى البوريفاج بنفس المنطقة، وأخيرا بسان استيفانو إلى أن انتهت هذه الندوة لأسباب كثيرة بعد هدم سان استيفانو.

وفى الستينيات كان يلتقى أدباء هذا الجيل في "مقهى النيل" حيث كانوا يتحلقون حول رواد الشعر فى الثغر أمثال عبد العليم القبانى ومحمود العتريس وصالح المصرى وكامل حسنى ومحمود الكمشوشى وصبرى أبو علم، وانضم إليهم أمل دنقل وقت أن كان مقيما بالإسكندرية.

أما مقهى "فندق الشانزلزيه" فقد شهد حوارات ولقاءات فكرية وإبداعية مهمة ويحكى الأديب محمود عوض عبد العال فى شهادة له عن تلك الفترة قائلا:

"كنا نجلس إليه كل صيف حيث يحضر إلينا توفيق الحكيم بعد العاشرة صباحا وقبله كان يحضر نجيب محفوظ، ثم يحكى بعض

النوادر التى حدثت للحكيم أثناء سيره على المقهى ومنها أنه ذات يوم تأخر عن موعده المعتاد فشعرنا بالقلق عليه.. لكنه عندما ظهر كان يضحك ويقول اعترضنى خفير عمارة تحت التشطيب وحاول أن يصنع لى كوب شاى قائلا: أهلا وسهلا سعادة البيك

- أهلا وسهلا

- والله تشرب معايا شاى.

- أين؟

- هنا بجوارى "على الرصيف طبعا" سأعمل لك كل كوبا ثقيلا جدا

- كدا.. متشكر

- أنا عارفك كويس يا سعادة البيه

- كدا.. طيب عال

- هو فيه حد ما يعرفش البيه العقاد؟!

- كدا.. عال.. عال.. كتر خيرك على كل حال!!

مقهى عبد الله
سحر البدايات

مقهى "عبدالله" بالجيزة هو المكان الذى شهد ولادة جيل إبداعى مغاير ومغامر وخارج عن السائد فى الأعراف الأدبية، جيل مجرب، مخترق، متجاوز، فاتح سكك وأبواب ونوافذ نحو لغة تنحاز للفعل الإبداعى، ولا تنحاز إلى نفسها فقط لغة تقترب من الواقع، قدر اقترابها من جماليات الموروث، لغة تعبر عن الذات قدر تشابكها مع الآخر.

ففى النقد الأدبى كان من رواده د. محمد مندور وأنور المعداوى ورجاء النقاش وفاروق عبد القادر، وفى المسرح كان نعمان عاشور ومحمود دياب وميخائيل رومان، وفى الصحافة محمود السعدنى وزكريا الحجاوى، وفى الشعر محمود حسن إسماعيل وصلاح عبد الصبور وعبد الرحمن الأبنودى وصلاح جاهين وأحمد عبد المعطى حجازى.

كان رصيف المقهى يزدحم - يوميا - بكل هؤلاء حيث تدور المناقشات والحوارات التى تصل أحيانا إلى العراك والتشابك لكن سرعان ما يصفو الجو وتعلو الضحكات وتكثر القفشات.

كان رصيف المقهى يمثل حياة كاملة لرواده - الذين كان معظمهم فى مبتدأ الطريق فى بداية الخمسينيات من القرن الماضى - ومن هؤلاء الناقد الكبير رجاء النقاش الذى يقول:

"مقهى عبد الله كان بالنسبة لى وطنا للصبا والأحلام والمواجع والأفراح. ففى هذا المقهى التقيت أعز من ربطتنى بهم الحياة الأدبية من أساتذة وأصدقاء وفى هذا المقهى كنت أتناول طعامى ثلاث مرات فى اليوم طيلة سنوات تعليمى فى الجامعة، وذلك من مطعم الفول والطعمية المجاور للمقهى. وفى هذا المقهى كنت أذاكر دروسى، أقرأ الكتب الأدبية والثقافية التى كونتنى وتركت فى عقلى وقلبى أثرا لا تمحوه الأيام.

وفى هذا المقهى تعرفت عم عبده جرسون المقهى. الرجل الأمى البسيط الذى كان مليئا بالشهامة والطيبة والنور. والذى كان يرعانى لكثرة ما يرانى، وذلك دون ضجة، ودون أن يظهر عواطفه بصورة صريحة، وما أكثر ما اقترضت منه - أنا وغيرى - قروشا كانت هى زادى وزاد أمثالى من أبناء الريف الوافدين إلى القاهرة، يطلبون العلم فى الجامعة ويبحثون عن مكان لهم فى المستقبل، وإمكاناتهم المادية التى يمكن أن تساعدهم فى تحقيق أهدافهم قليلة ومحدودة، بل ومعدومة فى كثير من الأحيان".

ويؤكد النقاش أن الجيل السابق على جيله من أمثال أنور المعداوى وعدنان الراوى وعبد الحميد قطامش ونعمان عاشور وعبدالحميد يونس ومحمود شعبان كان مرتبطا بجيلهم حيث كانت بينهم علاقة لم تشهد الحياة الثقافية فى مصر مثيلا لها من قبل أو من بعد. فهى علاقة الآباء بالأبناء، وعلاقة الأخوة مع بعضهم البعض، وعلى حد تعبيره: فقد "كان فى هذه العلاقة قليل من التنافس والتزاحم، وكثير من الحنان والتراحم. فمن كان فى ضائقة من أهل المقهى ـ كبيرا أو صغيرا ـ وجد إلى جانبه أخوانه يمدون له اليد بغير بخل أو تردد. ومن كان يمرض منهم فإن الآخرين يقفون إلى جانبه حتى يمن الله عليه بالشفاء، ومن يفقد العمل ـ وكثيرا ما كان يحدث هذا ـ فإن الآخرين يسعون بكل صدق وجدية فى البحث عن فرصة جديدة له. وإذا غاب الواحد ليلة أو ليلتين عن المقهى لم يتوقف السؤال عنه حتى يعود".

ويصف النقاش الخلافات التى كانت تحدث من شدة المناقشات ـ على المقهى ـ قائلا: "وكان يحدث بين أهل المقهى ـ فى بعض الأحيان ـ لحظات تشبه "صراع الديكة" وقد شهت بنفسى كثيرا من هذه اللحظات، وخرجت منها بنتيجة عجيبة، فصراع الديكة هذا كان يحدث عادة بين اثنين يحبان بعضهما أكثر من الحب المعتاد بين الناس، وكان من هذه اللحظات ما يقع بين عبدالقادر القط وأنور المعداوى، أو بين محمود السعدنى أو زكريا الحجاوى، ثم اكتشف من خلال هذه اللحظات المليئة بالصراع أن أكثر اثنين يحبان

بعضهما البعض هم القط والمعداوى والسعدنى والحجاوى. أما لحظات الصراع العابرة فكانت من شدة امتلاء الإناء بالماء العذب تسقط منه قطرات على جوانبه بعد أن يضيق بما فيه".

كان أى أديب جديد يريد الدخول إلى الوسط الثقافى عليه أولا أن يأخذ صك الاعتراف من "شلة الأدباء والنقاد" والجالسين على رصيف مقهى "عبدالله" - ذات الطابع الشعبى البسيط - والعجيب أن الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى مر بهذه التجربة، فبعد أن تخرج في مدرسة المعلمين بشبين الكوم - بمحافظة المنوفية - اعترضت أجهزة الأمن على تعيينه مدرسا بعد أن تم اعتقاله فى السنة السابقة للتخرج إثر قيادته لمظاهرة طلابية اعتبرتها الأجهزة معادية للنظام العسكرى الذى قمع الحركة الشعبية التى تفجرت فى مارس عام (١٩٥٤) وطالبت بإعادة العمل بالدستور وعودة الجيش إلى ثكناته. يقول حجازى عن تلك الفترة:

"حاولت العثور فى قريتنا على عمل فى إحدى المدارس الخاصة لكنى لم أوفق، فلم يبق أمامى إلا أن أجرب حظى فى العاصمة التى رحلت إليها صفر اليدين من كل زاد ومن كل متابع إلا جنيهات قليلة زودنى بها والدى، وعنوان فى حى السيد زينب لصديقين من أبناء القرية يطلبان العلم فى الأزهر ودار العلوم، ويسكنان معا فى شقة صغيرة أبديا استعدادهما لاستضافتى أول قدومى للقاهرة، ونسخة من العدد الثانى عشر من مجلة "الرسالة الجديدة" الصادرة فى مارس (١٩٥٥) وفيه القصيدة الوحيدة التى كانت قد نشرت

لى حتى ذلك الوقت "بكاء الأبد"، بالإضافة إلى كراسة تضم ما كنت نظمته حتى ذلك الوقت وكان حوالى عشرين قصيدة تمثل مرحلة الانتقال من البحث عن الشعر إلى الوصول إليه. ولهذا لم أنشر منها إلى نحو أربع قصائد. واعتبرت الباقى ذكريات شخصية تستحق أن أعتز بها وحدى، ولا تستحق أن تنشر على الناس.

بهذه الهيئة ذهبت إلى مقهى عبدالله التى قيل إنه يقع فى ميدان الجيزة، وإنه المكان المفضل للناقد المعروف أنور المعداوى الذى كنت أتابعه بشغف منذ أصبحت قارئا منتظما لمجلة الرسالة رسالة الزيات.

وفى مقهى عبد الله تعرفت على عدد من الأدباء الذين كانوا يواظبون على حضور ندوة المعداوى التى كانت فى حالة انعقاد كل مساء، ومنهم الدكتور عبد القادر القط وعبدالمحسن طه بدر - الدكتور فيما بعد - وزكريا الحجاوى والمحامى الشرعى الظريف عبدالحميد قطامش أحيانا. والكاتب الساخر محمود السعدنى - أحيانا - والشاعر محمود حسن إسماعيل، وكان من رواد الندوة، ورجاء النقاش الذى كان أقرب الرواد للمعداوى، فهو معجب به يتفق معه فى الكثير ويعامله معاملة المعيد للأستاذ. وكذلك يفعل المعداوى مع رجاء، فهو يقرأ له ويقربه إليه ويستخدم فى مخاطبته لهجة عائلية دافئة حانية".

ومن هنا بدأ حجازى يتقرب إلى رجاء النقاش حيث وجد فيه الصديق الذى يخفف عنه من وطأة المدينة والغربة، يقول حجازى:

"ولست أذكر الآن كيف صرنا - رجاء وأنا - صديقين ، وكم من

الوقت استغرق انتقالي من زائر ريفي طارئ لا تربطه بأى من رواد الندوة علاقة شخصية تؤهله للاندماج فيها إلى صديق حميم لرجاء تجاوزت علاقتنا حدود الندوة وحدود المقهى، فنحن نلتقى فى النهار والليل، فى المقهى وفى المنزل الذى كان رجاء يسكنه مع أسرته وكان يقع وراء المدينة الجامعية غير بعيد عن ميدان الجيزة"

والظاهر أن الكاتب المسرحي الرائد نعمان عاشور قد مر بنفس الظروف التي مر بها حجازى والنقاش فالقرويون فى بداية عهدهم بالقاهرة عادة ما يصدمون أو كما يقول حجازى فى قصيدته "الطريق إلى السيدة" من ديوانه الأول "مدينة بلا قلب" :

وسرت يا ليل المدينة
أرقرق الآه الحزينة
أجرّ ساقى المجهدة
للسيدة
بلا نقودٍ، جائعٌ حتى العياءْ
بلا رفيق
كأننى طفل رمته خاطئة فلم يعره العابرون فى الطريق
حتى الرثاء

جاء نعمان عاشور من بلدته ميت غمر باحثا عن وظيفة بعد أن تخرج من كلية الآداب، وبالفعل التحق بالعمل فى بنك التسليف الزراعى، وكان عاشور قد تعرف قبل تخرجه على د. محمد مندور الذى كان عائدا لتوه من باريس ويشاء حظه أن يكون من الطلاب

الذين درس لهم مادة الترجمة مع زميله الدكتور على حافظ والدكتور شعيرة :

يقول نعمان عاشور فى كتابه "المسرح حياتى" :

"ومن الدقيقة الأولى بعد الحصة مباشرة وجدتنى ألتف حول مندور بكل حرص وشغف وإعجاب وأتعرف عليه وأصادقه هو والدكتور على حافظ . . وكان نوعا غريبا من الصداقة بالفعل - صداقة التلميذ لأستاذه أو الأستاذ لتلميذه" .

وقد كان حافظ ومندور يقطنان فى شقة علوية من شقق التلاميذ فى الجيزة . ويعيشان معنا على قهوة عبد الله التى تتوسط ميدانها وكأنهم ليسوا أساتذة وإنما تلاميذ أمثالنا . وبالفعل كان هذا وضعهم فقد كان الواحد منهم يتقاضى أجره من الجامعة بالحصة لا يزيد بعد الاستقطاعات عن ريال واحد . . إذا لم يكن قد أدرجت لهم بعد درجات فى ميزانية التدريس بالكلية . . وإنما دفع بهم طه حسين إلى هذا الوضع لتشغيلهم والإفادة من عودتهم بدلا من تعيينهم أو تحويلهم إلى التدريس فى مدارس الوزارة وكان طبيعيا أن يكون معظم جلوسهم على القهوة التى يمكن أن يأكلوا فيها الطعمية وسندوتشات الفول والسميط والجبن الرومى والشاى بالحليب"

وعن مكانة المقهى فى الحياة الثقافية يقول نعمان عاشور : "من بعد هذا التاريخ تحول ميدان الجيزة بمقهى عبد الله إلى ما يشبه الحى اللاتينى فى باريس . . ولست أقول إن الفضل فى ذلك يرجع لمندور رحمه الله . . فقد كان المقهى دائما عامرا بالتلاميذ

والأدباء.. لأنه مقهى بلدى رخيص لا يمكن أن يجلس عليه إلا الطلبة الفقراء على عكس مقهى المثلث أو سان سوسى المواجه له في الجانب الآخر من الميدان والتى كان لا يجلس عليها إلا زعماء الطلبة من الحقوقيين والزراعيين وطلبة الهندسة وغيرهم من أبناء الأثرياء نوعا، ولمقهى عبد الله هذا فضل وله تاريخ طويل من خدمة الحركة الثقافية.. وهو تاريخ وعيته حتى السنوات الأولى من ثورة يوليو (١٩٥٢).

ومما لا شك فيه فإن مشاهدات نعمان عاشور على رصيف المقهى قد انطبعت فى أعماله الأولى - خاصة - التى رصد فيها التحولات الاجتماعية والتفاوت الطبقى، والتى تنتمى إلى مدرسة "الواقعية الاشتراكية فى الأدب مثل مسرحياته "المغناطيس" و"الناس اللى تحت" و"الناس اللى فوق" وغيرها.

فقد كان المقهى يمثل جزءا أصيلا فى تكوينه الفكرى وفى أولوياته اليومية وهذا ما يؤكده حين يقول:

"كنت أعيش أيامى أيضا وحتى بعد التخرج بعامين إلى نهاية الحرب العالمى الثانية عام (١٩٤٥) فى أجواء متعددة وصداقات شتى تتجمع كلها فى الجيزة وتمتد إلى الدراسة فى كلية الآداب.. وتتبلور حول مقهى عبد الله وفوق موائده.. فقد أتاحت لى الوظيفة بمرتبها المضمون كما أتاح لى وجودى مع العائلة.. أن أتابع حياتى كأنى لازلت طالبا فى الكلية، فبعد الظهر.. أخرج من البيت ضامنا أننى أعيش فى كنف العائلة.. فلا أعود إلا مع انتصاف الليل.. أو

عند الفجر تقريبا.. أقضى معظم الليل فى مقهى عبدالله الذى لم يكن يغلق أبوابه أبدا على مدار الليل والنهار".

وكانت تجربة نعمان عاشور مع مقهى عبد الله فرصة فتحت أمامه المجال للتعرف على الحياة الأدبية ـ بشكل مكثف ـ من خلال الندوة التى كان يديرها أنور المعداوى، ثم انتقل بعد ذلك إلى مقهى "مرعى" وهو مقهى بلدى يقع على بداية المدخل المؤدى إلى نفق شارع الهرم.. كان يحلو للدكتور عبدالقادر القط قبل أن يسافر فى بعثته إلى إنجلترا أن يجلس عليه ومعه د. محمد العلائى وأمين مجاهد، والعلائى أحد أدباء ذلك الزمان وكان من ظرفاء عصره وتميز بالمناوشة والجدل العقلى المثير، وكذلك ندوة عبد اللطيف السحرتى والتى كان يقيمها ـ كل أسبوع ـ فى كازينو "الكازينو" على شاطئ النيل فى الجيزة، وكان السحرتى قد ترك ميت غمر وطلق المحاماة كما يقولون.. وجاء ليعمل فى القاهرة فى إحدى الوظائف الحكومية ليعيش فى خضم نشاطها الثقافى.. فوجد فيها خير مرتع لنشاطه كواحد من أبرز مؤسسى مدرسة أبولو الشعرية وكناقد متابع للنظريات الأدبية الجديدة. خاصة ما تعلق بالشعر والشعراء.

وبالفعل فقد شهد مقهى عبد الله أصعب الأيام التى عرفها كثيرون من أبناء هذا الجيل والذين أصبح معظمهم فيما بعد من ألمع الأسماء ومن أكثر المؤثرين على الحياة الأدبية والفكرية والفنية فى مصر والعالم العربى كله.

وعلى حد تعبير الناقد رجاء النقاش "فقد كانت هذه الأيام الصعبة بالنسبة لأهل المقهى هى أيام البراءة، وأيام الضحك من القلب.. والأيام التى كنا نتصور فيها أن همومنا الكبرى هى أن نعثر على كتاب جديد، حلو ومفيد، أو نجد قروشا، نتمكن بها من شراء طعام على الغداء والعشاء من الباعة المتجولين فى ميدان الجيزة أو من المطاعم الشعبية المجاورة للمقهى، ثم نشرب كوبا من الشاى بعد امتلاء بطوننا بهذا الطعام الرخيص. تلك كانت همومنا الكبيرة التى كنا نعانى فى سبيل حلها ولكن نفوسنا كانت فتية وعفية، وأحلامنا كانت نقية ومشرقة، وإقبالنا على الدنيا كان كبيرا، وكان فى داخلنا قوة دافعة تشبه البخار المحرك لقطارات السكك الحديدية فى أيامنا تلك. ولم نكن نعرف كلمة الإحباط، أو أى شعور يمكن أن نسميه باسم اليأس. رغم أن الحياة لم تكن تلتفت إلينا أو تعطينا شيئا ذا بال"

***

وقد شهد المقهى تألق نجم محمود السعدنى ككاتب ساخر من الطراز الأول منذ منتصف الأربعينيات من القرن الماضى حين تقدم إلى أنور المعداوى شيخ النقاد ـ فى ذلك الوقت ـ عارضا عليه وعلى شيخ العرب زكريا الحجاوى باكورة أعماله الأدبية وكانت عبارة عن مجموعة قصصية ومن يومها أصبح السعدنى فاكهة الجلسة بقفشاته الساخرة الممتعة، وفى ذلك يقول الدكتور سمير سرحان فى كتابه "على مقهى الحياة":

"دخل محمود السعدنى وزكريا الحجاوى المقهى تسبقهما ضحكاتهما المجلجلة، وكان السعدنى آنذاك فى بداية أوج شهرته.. كاتبا ذكيا.. ساخرا إلى درجة البكاء.. مغلفا ضحكاته التى تبدو بريئة بروح ناقدة تكشف دفعة واحدة عن كل ما كان فى الحياة من أخطاء، وكان الحجاوى رفيق عمره وابن موطنه فى شوارع الجيزة وأزقتها - وقد بدأ منذ زمن يخوض معركته بمفرده لجمع كنوز الأدب الشعبى من القرى والدساكر، وكان يؤمن بأن اكتشاف الروح الحقيقية للشعب تكمن فى اكتشاف ما أبدعه من أشعار وألحان وحكم وأمثال تراكمت عبر السنين.. أنات حنين هذا الشعب إلى الحرية.. معاناته من سنين القهر..غناؤه نحو المستقبل.. إلخ

وكان السعدنى هو الوحيد من أفراد مجموعة مقهى عبد الله من الأدباء الذى يملك سيارة - فى تلك الفترة - لكنها كانت قديمة وسنهالكة ولا تصلح للاستعمال - كما يقولون - كان كل يوم يأتى بها ويتركها على رصيف المقهى بعد أن تكون قد أحدثت جلبة وحشرجة يكاد ينخلع لها قلب الزبائن. وكان السعدنى فى نهاية كل سهرة يداعب الحاضرين قائلا: "هيا زقوا يا أولاد الـ.... حتى أوصل كل واحد إلى بيته"!! وكان للسعدنى وجهة نظر فى رفاقه على المقهى فيقول فى كتابه "مسافر على الرصيف": "إذا كان زكريا الحجاوى كمتحدث يبهرنى وقطامش يبهجنى، فإن عباس الأسوانى هو الوحيد الذى أضحكنى، ولم أضحك من الأعماق إلا وأنا أستمع إليه".

المعداوى الدراما التى بدأت وانتهت مبكرا

كان أنور المعداوى هو حلقة الوصل فى كثير من جلسات مقهى عبد الله ـ الذى كان يحمل اسم مقهى الكمال ـ حوله كان يتحلق الأدباء الجدد يستمعون إلى آرائه فى إبداعاتهم وفى بعض شئون الحياة نظرا لما كان يتمتع به من أريحية جعلت الكثيرين يفيئون إليه وعلى حد تعبير الكاتب المغربى عبد الكريم غلاب* فى مقال تحت عنوان "صديقى الراحل أنور المعداوى" نشرت فى جريدة "المساء" بتاريخ (٢٥) ديسمبر (١٩٦٥) يقول فيه: "هناك جوانب إنسانية كانت تحبب إلى أنور المعداوى وتجعلنى أحس بالمتعة فى الحديث إليه فقد كان يتعاطف مع أصدقائه ويرفع الكلفة منهم، وكان أسلوبه فى الحديث كأسلوبه فى الكتابة رشيقا جميلا جذابا؛ ينتقد أحيانا ولا يحرج، يهاجم أحيانا ولا يؤذى. وكان مرتبطا بوطنه مصر وبقريته معدية مهدى".

وقد كان للمعداوى طموح أدبى كبير لم تسعفه الحياة الثقافية والسياسية فى تحقيقه، وهذا ما يؤكده الناقد الراحل د. على شلش فى كتابه عنه ـ والصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام (١٩٩٠) ـ حيث يشير إلى ذلك الإحساس المأساوى الذى تلبس المعداوى إثر تجربته العاطفية المستحيلة مع الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان. مشيرا إلى اليوميات التى كتبها المعداوى خاصة تلك المؤرخة فى (١٠) مارس (١٩٤٧) والتى يقول فيها:

"لست أدرى لم رزئت بهذا الشعور المرهف الذى يجعلنى أبحث عن الآلام، وأسعى فى طريقها الذى لا ينتهى.. تمضى بى الأيام قلقة متشابهة لا يشع فيها أمل يبدد من ظلام القلب والروح.. أى شباب هذا الذى تقذف به المقدرات فى خضم من أعاصير الحيرة، فلا يدرى على أى شاطئ ترسو سفينة أحلامه وأوهامه؟! حقا إن الحياة عند الذين يشعرون مأساة!! أنا أشكو من الحياة لله ولنفسى، أما الناس فيبعدنى كبريائى عن قلوبهم ودنياهم التى لا أجد فيها نفسى".

هكذا كانت "المأساة" هى إحدى المفاتيح الرئيسية لشخصية المعداوى وقد ظل هذا الانكسار الداخلى ينخر فى جسده وروحه حتى سقط ميتا وهو لم يتجاوز الخامسة والأربعين عام (١٩٦٥).

رغم أنه كان أحد أبناء جيله البارزين إلا أن طبيعته الانعزالية جعلته لا يندمج مع المتغيرات الاجتماعية والسياسية خاصة بعد ثورة يوليو (١٩٥٢)، ففى حين اندمج كثير من رفاقه مع فكر الثورة وشاركوا فى مؤسساتها الثقافية والسياسية ونال كثير منهم مناصب قيادية، إذ به - هو بما يمتلك من ثقافة واسعة وحس نقدى متميز ينزوى على نفسه ويؤثر السلامة، ويكتفى بالمشاهدة من خلال جلسته اليومية على مقهى عبد الله.

ويرى د. على شلش أنه "لم يكن هو من ذلك النوع الذى يوكل إليه دور ولاسيما أنه كان قد هاجم فى السنوات القليلة السباقة ذوى الأدوار الراسخة فى حياتنا الأدبية ابتداء من طه حسين والزيات والعقاد والحكيم وسلامة موسى. كما لم يكن من النوع الذى يسعى إلى دور، بسبب حساسيته وكبريائه واعتداده الشديد بنفسه

وهكذا تدعم موقفه السلبى وزاد من سلبيته أن مجلة "الرسالة" ـ والتى كان من أبرز كتابها ـ نفسها قد بدأت فى الاهتزاز والتخبط منذ (٢٣) يوليو حتى فاضت روحها فى فبراير (١٩٥٣).

لقد لاحظ المعداوى اهتزاز "الرسالة" وتخبطها فكف عن الكتابة فيها من تلقاء نفسه. ولزم مقهاه والكل من حوله فى حركة دائبة بحثا عن أدوار جديدة أو سهلة للتعايش".

وقد ظل المعداوى يرتاد مقهى عبد الله حتى تم إغلاقه عام (١٩٦١) فنقل نشاطه إلى مقهى "إنديانا" بالدقى بالقرب من مكان سكنه، ومن الطريف أن صاحب المقهى الجديد أعد للمعداوى وأصدقائه ركنا خاصة كتب عليه "ركن المثقفين"

ويلخص الكاتب محمود السعدنى مأساة المعداوى مع ثورة يوليو قائلا:

"ولكن مأساة أنور المعداوى ستظل فريدة فى تاريخ المآسى لأن أنور المعداوى لم يكن ضد الثورة، ولم يكن ضد جمال عبدالناصر، ولكن كان ضد نوع من الأدباء احتلوا القمة فى الساحة الأدبية، وهم فى الأصل كانوا ضباطا فى القوات المسلحة، ثم اعتزلوا السلك العسكرى واحترفوا العمل الأدبى، وأصبحوا هم مندوبى القيادة.. فى الشعر والأدب والفن".

وهكذا يضع السعدنى يده على جزء من مكمن الجرح، وربما هذا ما جعل المعداوى ـ الذى كان يتحلق من حوله أدباء كثيرون وأصدقاء كان يحس دائما بالوحدة، وهذا ما عبر عنه فى يومياته المؤرخة بـ(١٢) مارس وفيها يقول:

"أصدقائى يملأون فراغ دنياى ولكنهم لا يملأون فراغ قلبى!"

مقهى إيزافيتش
جماليات الهامش

إذا كان مقهى "عبدالله" بالجيزة هو أشهر المقاهى الأدبية فى الخمسينيات ، فإن مقهى "إيزافيتش" والذى كان يقع فى قلب ميدان التحرير هو الأشهر فى فترة الستينيات ، حيث توافد إليه أبناء هذا الجيل لسببين رئيسيين أولهما : قربه من منطقة "وسط البلد" بما فيها من تجمعات ثقافية ومجلات وجرائد ونوافذ للنشر ، والسبب الثانى يكمن فى انخفاض أسعاره، مقارنة بمقهى "ريش" الذى عرف وقتها بأنه مقهى "النخبة" ، وقد كان بجواره - أيضا - مطعم للفول والطعمية يقدم الوجبات من السندويتشات رخيصة الثمن ، ومن هنا ارتبط به أبناء هذا الجيل أمثال عبدالرحمن الأبنودى وأمل دنقل ويحيى الطاهر عبد الله ومحمد البساطى وسيد حجاب وبهاء طاهر وغالب هلسا . ومن جيل الأربعينيات المفكر الراحل محمد عودة

وهو الأبرز وصاحب الشلة المميزة فى "إيزافيتش" حيث كان يذهب إليه ـ يوميا ـ ليلتقى الأصدقاء، ويقيم الندوات والمناقشات حول القضايا المختلفة فى الحياة المصرية.

ويشير محمود السعدنى فى مقال تحت عنوان "رحلة بلا متاع" ضمن كتابه "مسافر على الرصيف" إلى سبب اختيار عودة للجلوس على "إيزافيتش" قائلا: "ولعل اختيار محمد عودة لمقهى إيزافيتش يرجع إلى الصفات المشتركة بين الرجل والمقهى، فمحمد عودة واحد من المثقفين المصريين الذين سبحوا فى علوم الغرب، وأغلب قراءاته باللغتين الفرنسية والإنجليزية، ومع ذلك لم يبحر محمد عودة بعيدا عن شواطئ مصر، ولم تنقطع خيوطه بقاع المجتمع، فى الحارة وفى القرية، بالرغم من أنه كان يعيش فى وسط القاهرة وفى أرقى أحيائها وينزل فى بينسيوناتها وفنادقها الصغيرة.

كان صورة مصغرة من مقهى إيزافيتش" ديكور أفرنجى وخدمة أجنبية وطعام مصرى أصيل".

ويؤكد السعدنى أن عودة كان مختلفا عن رواد المقهى فهو ابن ثقافة أخرى عميقة، ويصف ما كان يحدث من خلافات بينه وبين بعض رواد المقهى قائلا:

"كان يتوافد على مقهى إيزافيتش فى تلك الأيام مجموعة من المثقفين المصريين قرأوا قشورا فى الثقافة، وسبحوا فى مجار ثقافية ضحلة، واستخدموا شعارات وتعبيرات وعبارات أفرنجية، وارتاحوا إلى ما وصلوا بكلمات عربية.

واقتربت من محمد عودة أكثر عندما وصف شلة المثقفين إياهم بأنهم جهلة. وكان ذلك الوصف من محمد عودة كافيا لتغيير فكرتي عن شلة إيزافيتش".

هكذا يرسم لنا محمود السعدني صورة عن بعض المعارك الثقافية التي كانت تدور في المقهى في فترة الأربعينيات من القرن الماضي، حيث ظهرت مجموعة من مدعي الثقافة وأصحاب اللهجات الهجينة والمعلومات السطحية وبدأوا يملأون الوسط الثقافي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهي ظاهرة ليست بالغريبة، فعادة بعد الحروب الكبرى ما تسود الفوضى السياسية والاجتماعية، فتميل المجتمعات إلى السطحية وثقافة الاستهلاك، لفترة محدودة بعدها سرعان ما يثوب المجتمع إلى رشد مرة أخرى.

ويؤكد السعدني أن حبه لصحبة محمد عودة جاءت من تقديره له عندما عرض عليه إنتاجه الأدبي فقرأه "عودة" باهتمام أبدى إعجابه به على عكس سلوك شلة "إيزافيتش" عندما عرض عليهم السعدني عددا من أعماله فقد ألقوا نظرة خاطفة على ما كتب دون أدنى اهتمام. فقد انشغلوا على حد تعبيره "بمناقشة قضايا العصر التي تبدأ من المشكلات التي خلفتها الحرب العالمية الثانية والأخطار المحدقة بالعصر النووي، وتنتهي دائما بمناقشة سلوك "مخالي" جرسون مقهى إيزافيتش وموقفه الغريب لإصراره على تقاضي حساب الطلبات من شلة المثقفين قبل أن يغادروا المقهى.

ومن المواقف الطريفة التي يتذكرها الروائي محمد البساطي عن

مقهى "إيزافيتش" أن صاحب المقهى ـ وقد كان يوغسلافى الأصل ـ عندما كان الزعيم اليوغسلافى تيتو يزور القاهرة كان الأمن يعتقله ثم يخرجه من السجن بعد مغادرة تيتو، ويقال إنه كان هاربا من بلده بعد ما اتهم بقتل أحد السياسيين هناك:

وقد حكى لى "البساطى" أيضا أن القاص يحيى الطاهر عبد الله فى منتصف الستينيات كان يعيش قصة حب ملتهبة، وذات يوم طلب من البساطى أن يتوسط له عندها على اعتبار أن البساطى موظف حكومة له حيثيته ويضيف البساطى: "وبالفعل حضرت اللقاء بينهما فى إحدى الحدائق العامة، وقد شاهدت منظرا لافتا للانتباه حيث رأيت يحيى الطاهر عبدالله ذلك الصعلوك المتمرد الشرس الفوضوى يركع أمام هذه الحبيبة ويطلب منها أن تسامحه وأنه لن يخطئ فى حقها أبدا"

وكان يحيى قد كتب لها خطابا غراميا وقد حاول مرارا أن يدسه فى حقيبة يدها لكنها دائما كانت ترفض مع كل محاولة.

وكان معنا أيضا المترجم "خليل كلفت" " وقد كدنا نسقط من الضحك ونحن نشاهد هذا المشهد الغرامى الملتهب.

بعدها عدينا كوبرى قصر النيل، ففوجئت بيحيى الطاهر ينزف دما من أنفه من شدة التأثر، فأخذته ـ بسرعة ـ إلى داخل مقهى "إيزافتش" وفتحت صنبور المياه على رأسه وغسلته من الدم، وظللت جالسا بجواره حتى أفاق من غيبوبة الغرام هذه.

وقد شهد المقهى أحداثا سياسية مهمة حيث كان أحد المقرات

لأحداث انتفاضة الطلاب عام (١٩٤٦) ، وهى من أشهر المظاهرات فى التاريخ المصرى الحديث حيث كان شعارها "يحيا الطلبة مع العمال" حيث فتحت آفاقا جديدة للعملية التنظيمية بين الطلبة والعمال. فقد تحركت المظاهرة من شارع الجامعة إلى ميدان الجيزة ثم كوبرى عباس، وهناك بدأ الاعتداء على الطلبة والمتظاهرين بواسطة الفرق العسكرية المسماة "الباشا" التى كان يرأسها سليم زكى، وقد ذكرت جريدة "الأهرام" أن عدد المصابين (١٧٠) شخصا منهم (٦٥) طالبا فى حين ذكر الرافعى فى كتابه "فى أعقاب الثورة المصرية" الجزء الثالث - طبعة دار المعارف (١٩٨٩) - أن عدد الجرحى قدر بأربعة وثمانين جريحا أصيبوا إصابات بالغة وأنه لم يقتل أحد.

وقد طلب د. طه حسين " فى عدد (١٨) فبراير (١٩٤٦) من "الأهرام" تقديم المسئولين عن حادثة كوبرى عباس للمحاكمة قائلا: "يجب أن يقدم هؤلاء السادة للمحاكمة وقبل كل شيء أن تعرف الأمة المصرية بالضبط عدد القتلى والجرحى وإن كان قتيل واحد يكفى لمحاكمة ألف وزارة وألف نقراشى" إشارة إلى "النقراشى" باشا رئيس الحكومة وقتها.

وعلى مقهى "إيزافيتش" بدأ التفكير فى تكوين "اللجنة الوطنية للطلبة والعمال" فى (١٨) فبراير (١٩٤٦) والتى دعت فى أول اجتماعاتها إلى إضراب عام احتشد فيه ما يقرب من (٤٠) ألف شخص بينهم ألف عامل من شبرا الخيمة طافوا شوارع القاهرة

مرددين نشيدا قام بتأليفه طالب يسمى "عبدالواحد بصيلة" أطلقوا عليه "نشيد الجلاء" الذى لحنه طالب آخر اسمه "على عبدالقادر" وتقول كلماته:

يا شعب قم خض بحر الدماء

لا تبك فالآن وقت الفداء

وقد نشرت "الأهرام" فى (٢٢) فبراير (١٩٤٦) بيان اللجنة الوطنية للطلبة والعمال الذى جاء فيه:

"إن هذا الإضراب الشامل جاء إبرازا لوحدة الأمة وتمسكها بمبادئها الوطنية حيث ظهرت مصر وطنا واحدا يرمى إلى هدف واحد، وقد كانت التلبية جبارة خالدة أبرزت روح مصر على حقيقتها ملتهبة حية لا تموت"

وقد سبق ذلك بيان أرسلته اللجنة إلى الملك فاروق نشر بـ"الأهرام" - أيضا - بتاريخ (١٤) فبراير (١٩٤٦) يؤكد فيه أعضاؤها "إنها حركة وطنية لا يقصد من ورائها إلا الحرية والاستقلال التام للبلاد".

ويقال إن الشاعر أمل دنقل كتب على إحدى طاولات "إيزافيتش" قصيدته الشهيرة "الكعكة الحجرية" التى تداولها الطلبة المعتصمون بميدان التحرير فى الحركة الطلابية عام (١٩٧٢)، والتى يقول فى مطلعها:

أيها الواقفون على حافة المذبحة

أشهروا الأسلحة

سقط الموت، وانفرط القلب كالمسبحة
والدم انساب فوق الوشاح!
المنازل أضرحة
والزنازن أضرحة
والمدى.. أضرحة
فارفعوا الأسلحة
واتبعونى
أنا ندم الغد والبارحة
رايتى عظمتان وجمجمة،
وشعارى الصباح!

مقهى أنديانا
عودة عصر الأفندية

بعد أن انحسرت الأضواء عن مقهى "عبد الله" بالجيزة الذى كانت ملتقى الأدباء والفنانين والمفكرين فى الخمسينيات، بدأوا يبحثون عن بديل له ووجدوا مبتغاهم فى مقهى "أنديانا" - الذى كانت تطل على ميدان الدقى -، إلا أنه كان يختلف - كثيرا - عن مقهى "عبد الله" ذى الطابع الشعبى، الذى كان يضم إلى جوارهم الحرفيين والصنايعية والباعة الجائلين والموظفين وغيرهم من فئات المجتمع، فى حين كان "إنديانا" ذا طابع كلاسيكى يقترب من طبيعة حى الدقى الذى يشتهر بأنه حى "البرجوازية المصرية" فكان رواد المقهى من كبار الموظفين وأرباب المهن المتخصصة كالمحامين والأطباء والضباط والصحفيين. وهذا ما أضفى عليه طابعا نخبويا جعله يمتاز بالهدوء فى حين كان مقهى "عبدالله" شعبيا على أكثر من مستوى،

وربما ارتبطت بدايات التأريخ للموروث الشعبى على طاولاته، التى شهدت مناقشات عميقة حول الفلكلور والمأثورات الشعبية، وكانت هذه المناقشات ـ التى كانت تدار فى الجلسات المسائية بين رشدى صالح وزكريا الحجاوى، أحد الأسباب الرئيسية فى أن يتجه صالح لتأليف كتابه الرائد "الأدب الشعبى" والذى جمع فيه كنوز الموروث الشعبى من طقوس ونصوص وإبداعات الجماعة الشعبية وتراثها الشفاهى، وكذلك كانت هذه الجلسات حافزا لأن يتجه الحجاوى ـ الذى بدأ حياته كاتبا للقصة حين نشر فى عام (١٩٤٨) أولى قصصه تحت عنوان "محاكمة قاعة النهر" والتى ضمتها بعد ذلك مجموعته "نهر البنفسج" والتى وصفها يوسف إدريس بأنها "كانت رائدة فى التبشير بالقصة الواقعية" إلا أنه اتجه إلى البحث عن مكامن الفلكلور من خلال رحلاته المتنوعة فى أرجاء مصر وفى قراها المختلفة وعلى حد تعبير خيرى شلبى فإن "الحجاوى عبر هذه الرحلات لم يفصل بين عناصر الإبداع الشعبى فلم يبحث عن الأغنيات ويترك السير الشعبية، أو الرقص الشعبى إنما احتوى العبقرية الشعبية فأصبحت دراسته للأغنية الشعبية ترتبط بدراسته الأغنيات والمواويل والبكائيات والنقش والرقص الشعبى والابتهالات والتواشيح والمديح النبوى والعمارة والملاحم الشعبية"

وكان نتاج رحلات الحجاوى أنه جمع أكثر من سبعين ملحمة شعبية لعل من أشهرها "كيد النسا، وابن عروس، وملاعيب شيحة، وسعد اليتيم" واكتشف عددا كبيرا من الفنانين الشعبيين أمثال أبو

دراع، ومحمد طه ويوسف شتا، والريس متقال، وخضرة محمد خضر وغيرهم.

وعلى مقهى "عبد الله" ظهرت البدايات الأولى للمسرح الواقعى على يد نعمان عاشور صاحب "الناس اللى تحت" و"المغناطيس" وهما المسرحيتان اللتان غيرتا من شكل المسرح المصرى والعربى ذى الطبيعة التقليدية الكلاسيكية، وكانت إيذانا بانتهاء عصر الميلودراما وبداية عصر الواقعية.

كان مقهى "عبدالله" - إذن - أشبه بالجامعة الشعبية بما كان يحتويه من أنماط اجتماعية وثقافية وتيارات فكرية مختلفة وأجيال متنوعة بعضها ذو أقدام راسخة فى الحياة الثقافية، والبعض الآخر جاء من القرى متحسسا خطواته الأولى فى الكتابة الإبداعية.

أما مقهى "إنديانا" - والذى يحمل اسم إحدى الولايات الأمريكية - فوجوده فى حى الطبقة الوسطى جعل أجواءه مختلفة، وإن جاءت مرتبطة بالفترة الزمنية - التى أصبح فيها قبلة المثقفين - وهى فترة الستينيات، والتى مثلت عند هذا الجيل حالة من التطلع للمراكز الثقافية والأدبية والاجتماعية.

وكان من بين من انتقل إلى "إنديانا" الناقد أنور المعداوى، والذى استأجر شقة فى حى الدقى قريبة من المقهى.

وعلى حد تعبير د. سمير سرحان فى كتابه "على مقهى الحياة" واصفا ما انتهى إليه حال المعداوى بعد أن ترك مقهى "عبدالله" مما أدى إلى وفاته: "وكأن الانتقال إلى مقهى إنديانا بالنسبة له كان

م8 - حكايات ... الصفوة (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

يعنى الانتقال إلى حياة المدينة بكل قسوتها . . وشوارعها البرجوازية المسفلتة الصماء . . وبأبنيتها المرتفعة التى تشبه علبا من الخرسانة والزجاج لا روح لها ولا قلب . . تخنق فردية الإنسان وتوقف ما بينه وبين الآخرين من أسباب التواصل الإنسانى والتعاطف الذى لا يجده المرء إلا فى حياة الريف أو حياة الحى الشعبى . . وكأن أنور المعداوى لم يحتمل هذا الانتقال . . فمات" .

وفى أحد المساءات الصيفية جاء فتى ريفى - إلى المقهى - كان على وجهه مسحة من حزن إلا أنه كان يحمل بين ضلوعه طاقة شعرية هادرة وعلى طاولته بدأ يكتب قصائد ديوانه الأول "مدينة بلا قلب" ، الفتى كان هو الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى والذى جاءت قصائده الأولى لتعبر عن قسوة المدينة وزحمة الحياة حاملة تساؤلات شتى ولعل هذا ما عبر عنه فى قصيدته "الطريق إلى السيدة" حين يقول : "يا عم / من أين الطريق / أين الطريق إلى السيدة / أيمن قليلا ثم أيسر يا بنى / قال ولم ينظر إلىّ . . / وسرت يا ليل المدينة / أرقرق الآه الحزينة / أجر ساقى المجهدة / للسيدة / بلا نقود جائعا حتى العياء / بلا رفيق / كأننى طفل رمته خاطئة / فلم يعره العابرون فى الطريق / حتى الرثاء . ."

ويصف د سمير سرحان قائلا : هذه الحالة الانتقالية من مكان رحب منفتح إلى مكان آخر يختلف جذريا قائلا : "لم يكن ذلك الانتقال مجرد رحلة فى المكان إذ لا يفصل المقهيين عن بعضهما البعض سوى عدة كيلو مترات محدودة ، وإنما كان انتقالا يحمل

الحياة الأدبية كلها إلى تأمل نوع الحياة الذى تفرضه المدينة..وهى حياة تخلت عن عفويتها وتلقائيتها لتفرز أوائل الستينيات أنماطا جديدة من الإبداع والفكر.

إنها حقا عدة كيلو مترات قليلة تفصل بين مقهى عبد الله فى الجيزة.. ومقهى "إنديانا فى الدقى.. لكنها وإن كانت خطوات قصيرة فى المكان إلا أنها كانت تمثل قفزة هائلة فى الروح والمزاج والحساسية التى ميزت الأدب المصرى والعربى أوائل الستينيات.

***

وقد كان من رواد المقهى فى الستينيات الرئيس العراقى الراحل صدام حسين والذى عاش فى حى الدقى ثلاث سنوات حين كان طالبا بكلية الحقوق جامعة القاهرة، وكان يأتى بصفة يومية إلى"إنديانا" ليجلس بمفرده على المائدة رقم (٢) ليتناول قهوته ليستذكر دروسه، وقد نشأت بينه وبين عم "حنفى" صاحب المقهى علاقة قوية، فقد كان يرحب دائما بصدام عند مجيئه وينصحه بالابتعاد عن السياسة ومشكلاتها التى كان يتحدث دائما فى أمورها مع عم حنفى.

وكان من عادات صدام فى حى الدقى أنه كان قبل ذهابه للمقهى يتناول غداءه فى مطعم "كبابجى" الدقى" الذى كان يملكه الحاج عبد القادر الخولى الذى يبلغ من العمر (٨٠) عاما، والذى يقول عنه: "كنت أعامله كزبون عادى فلم أتوقع أنه رجل عسكرى أو أنه سيكون له شأن يوما ما، وكان طلبه لا يخرج عن الإسكالوب

والروزبيف في العيش، فهو لا يحب الأرز ولا الخضراوات، وعندما كان يدخل المقهى يرسل له النادل للإسراع بالطلب، وفي أحيان كثيرة لم يكن يملك ثمن السندويتشات، فكان يؤجل الدفع لأيام، لكنه كان حريصا على سداد ديونه".

وفي مقال للكاتب محفوظ عبد الرحمن بموقع "كنوز الإلكتروني يحكى فيه بعض ذكريات هذه الفترة قائلا: "كان للمصريين مكانة خاصة في نظام صدام وفي قلبه، وكان تفسير ذلك من الكثيرين أنه ولاء منه للفترة التي هرب فيها إلى مصر، وعاش لاجئا سياسيا بعد محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم وكنا نرى صدام حسين في قهوة إنديانا في الدقي وكانت في الستينيات مكانا لتجمع المثقفين وعلى رأسهم رجاء النقاش وعبد القادر القط وكان من العرب المترددين على المقهى الروائي الكبير - فيما بعد - عبد الرحمن منيف، الذي كان مسئولا فيما بعد في وزارة البترول. وكان في جزء من زمن صدام، وكان هناك صفوة قريبة من صدام من بينهم: أمين عز الدين وأحمد عباس صالح، وكان الأول ملحقا إعلاميا في السفارة المصرية عند محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم وهو الذي قام بتهريب صدام حسين إلى سوريا ومنها إلى مصر".

الحرية فى مقهى "الحرية"

يافطة صغيرة فى ركن قصيّ من المبنى الذى يواجه "ميدان باب اللوق" تحمل عنوان مقهى "الحرية" ـ وكأنها تختصر تاريخا كاملا مليئا بالأحداث والشخصيات والحكايات والكتابات، سنوات طويلة تجاوزت الثمانين عاما، كانت شاهدة على ثورات فى السياسة والثقافة والتحولات الاجتماعية.

ورغم مرور الأزمنة وتعاقب الأجيال إلا أنك حين تدخل من باب المقهى فإن أول ما يخامرك من إحساس هو سطوة الماضى ـ بداية من الواجهة الزجاجية التى انطفأ بريقها مع تكاثف غبار الأيام والذكريات، مرورا بالأعمدة المستطيلة التى تتوسط المقهى، بالإضافة إلى ارتفاع المبنى نفسه مما يذكرنا بمبانى القاهرة فى بدايات القرن العشرين.

والإحساس بوطأة الزمن ـ هنا ـ من الممكن أن يتلبسك من اللحظة الأولى التى تطأ فيها قدماك أرضية المقهى ـ والذى يطلق عليه البعض "نصف مقهى ونصف بار" نظرا لأنه يقدم المشروبات العادية الساخنة والباردة كالشاى والقهوة والعصائر بالإضافة إلى "البيرة" المثلجة.

ومما يزيد عمق الإحساس بوطأة الزمن هو انقسام رواد المقهى إلى فريقين مختلفين تماما فى العمر، فالركن الذى فى اليمين يجلس فيه عادة الرواد القدامى الذين ينشغلون بشرب القهوة بأنواعها المختلفة وعادة ما ينهمكون فى لعبة الطاولة والشطرنج، وينشغلون بحكايات الزمن الجميل، وكثير منهم يعتبرون هذا المقهى جزءا أصيلا من حياتهم الخاصة، ومشاركا أساسيا فى سيرتهم الذاتية، فعلى طاولاته تكونت صداقاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، وتطور وعيهم السياسى والثقافى.

وفى الركن الشمالى من المقهى نجد الرواد الجدد الذين ارتبطوا بالمكان بصلات مختلفة، فنجد بعض الشعراء من جيلى الثمانينيات والتسعينيات أمثال هدى حسين وفتحى عبد الله، وإبراهيم داود ويوسف وهيب وعبد الوهاب داود وكذلك كتاب القصة والرواية من هذه الأجيال نائل الطوخى والطاهر شرقاوى وعلاء أبو زيد وأحمد شافعى وأحمد ناجى، وكذلك عدد كبير من المحررين الجدد فى الصفحات الثقافية. يرجع تاريخ إنشاء المقهى إلى عام (١٩٣٦)، حيث أنشأه يوسف أفندى والذى كان يعمل موظفا فى

شركة تقسيم الأراضي بالمعادى، وكان له قريب يدعى مرقص ميخائيل يعمل محاسبا في إحدى شركات بيع الأقمشة، وكان للاثنين قريب ثالث يدعى نقولا كان عاطلا عن العمل وكان يمثل قلقا للعائلة لأنه كان يثير الكثير من المشاكل، فاتفق الاثنان على تأجير مكان لإقامة مشروع "المقهى" بحيث يعمل فيه نقولا بدلا من إثارته للمشاكل، وكان رأس مال - هذه الشركة الصغيرة - وقتها لا يتعدى (٣٥٠) جنيها تشارك فيها "يوسف أفندى" و"مرقص ميخائيل". وربما كان اختيارهما لموقع المقهى صائبا حيث أنه يقع في مواجهة ميدان "باب اللوق" مباشرة، والذى يحمل وقتها اسم ميدان "الأزهار" ومع قيام الحرب العالمية الثانية راج حال المقهى خاصة مع كثرة رواده من الجنود الإنجليز الذين كانوا يملأون شوارع القاهرة وقتها، والذين أقبلوا على المقهى نظرا لانخفاض أسعاره من ناحية ولجودة مشروباته من ناحية ثانية، ولقربه من مناطق عملهم من ناحية ثالثة.

كما جذب المقهى كذلك الصفوة من رجال السياسة والتجارة في مصر واستلزم ذلك الاهتمام بالشكل الداخلى للمقهى - فضلا عن الواجهة الزجاجية المميزة واللامعة - في ذلك الوقت - فكانت مقاعده مصنوعة من الخيزران وكانت الكراسى مبطنة بالقش المقوى ومغطاة من الخارج بالجلد الطبيعى أما أدوات المقهى من فناجين وملاعق وصوانى فكانت لا تقل جودة عن تلك التى في صور وفيلات البشوات والأمراء فكان مشروب الشاى مثلا يقدم في براد

صينى ومعه فنجان صينى وسكرية ولبانة تحتوى على كوب لبن ونصف ليمون، كل ذلك بمقابل مادى بسيط هو (١٥) مليما، وكان ذلك بالطبع عام (١٩٥٠).

وقد اختلف ـ بالتأكيد هذا المشهد الجذاب إلى ما يشبه "الأطلال" الآن حيث المقاعد العادية المطلية بلون بنى كالح ـ كعادة المقاهى الشعبية ـ والمشروبات لا تقدم إلا فى أكواب زجاجية رخيصة، وقديمة أيضا كانت أرضية المقهى مغطاة بسجادات ومشايات بين الطاولات والمقاعد، وكانت مطرزة برسومات، وكانت الطاولات مغطاة ـ أيضا ـ بمفارش مطرزة بالزهور.

وقد وصل الاهتمام بالمظهر العام داخل المقهى إلى العمال والجرسونات الذين كان لهم زىّ خاص يختلف باختلاف الفصول، ففى الشتاء كانوا يرتدون ـ عمال المقهى ـ وكانوا ٦ جرسونات يونانيين بذلة سوداء ويلفون حول وسطهم فوطة بيضاء تعلو البنطلون، أما فى الصيف فيلبسون بدلة بيضاء.

وقد عرف المقهى شخصيات مهمة من الضباط الأحرار ـ خاصة الرئيس الراحل أنور السادات والذى كان من الرواد الدائمين على المقهى قبل الثورة وبعدها ويقال إن الضباط الأحرار كان يلتقون على طاولاته، وقد أورد أحمد فرغلى باشا فى كتابه "عشت بين هؤلاء" "أن الضباط الأحرار اجتمعوا أكثر من مرة فى مقهى الحرية واتفقوا على عدد من القرارات الحاسمة" ومن أشهر رواد المقهى الشيخ محمد حسن الباقورى ـ وزير الأوقاف الأسبق ـ والى كان يذهب ـ فى

الصباح الباكر ـ ليشرب قهوة الصباح هناك ثم يذهب إلى مقر الوزارة والذى يقع فى نفس الشارع.

وقد امتلأت ليالى المقهى بأمسيات فنية شارك فيها عدد من الفنانين أمثال شكرى سرحان وفطين عبد الوهاب ورشدى أباظة ود. محمود الحفنى. وقديما كان يوجد بالمقهى "صالون حلاقة" وقد أغلق فى الستينيات وكان الزبائن يحلقون فيه مقابل (٥) قروش، وكان بيرم التونسى يرتاد المقهى يوميا، ثم يختار طاولة ـ كان يطلب دائما أن تكون خارج المقهى كى يتأمل حركة الشارع التى يستلهم منها قصائده وعلى فترات متباعدة كان يأتى إليه زكريا أحمد.

وقد أراد أصحاب المقهى ـ فى سنوات ما بعد ثورة (١٩٥٢) أن يكون مكانا متنوعا للترفيه ،فتم شراء طاولتين للبلياردو والتى تم الاستغناء عنهما وبيعهما فى منتصف السبعينيات من القرن الماضى.

وقديما كان هناك حائط يفصل بين رواد المقهى من الرجال ورواده من النساء، وقد اختفى الآن هذا الحائط وقد اشتهر المقهى بلعبة الشطرنج والتى اجتذبت عددا كبيرا من رواد المقهى، ومن أكثر الأدباء الذين كانوا يأتون إلى المقهى لممارسة تلك اللعبة مع شرب فنجان القهوة المحوج الروائى الراحل فتحى غانم، والذى كان يأتى إلى المقهى أسبوعيا لمدة ساعتين لممارسة تلك اللعبة.

وعلى المقهى أيضا كان يجتمع فى أواخر الأربعينيات بعض الفصائل اليسارية ومازال بعض الذين شاركوا فيها من رواد المقهى ـ

والـذى امتـدت علاقتهم به لأكثر من ستين عـاما مـثل المنـاضل "سـعد زهران" والذى يـحرص على المجىء بصـفة مستـمرة إلى المقهى رغم أنه تجاوز الثمانين عاما .

فى مـقـهى "الحـريـة" يـشـكل المشـهـد عـبـر لـوحـات مـتـعـددة لـشـخـصـيـات شـاركت فى صـنع الأحـداث لـتـسـكن فى الـذاكرة، وشخـصيات مازالـت تعيش على حكـايات الماضى وأحداثه العاصفة، وأخرى تـنظر بـاندهاش لـلحياة مـحاولة صـنّع تاريخـها الخاص، بيـنما المكان يـطل من شـرفة التـاريخ على المسـتقبل بـقلب منـهك وإن وجد فيه بقايا من نبض قديم، يجعله يقاوم غارات الزمن وغباره المتلاحق .

سوق الحميدية
حلو الشام.. حلو القاهرة

تشتهر دمشق بمجموعة من الأسواق القديمة ذات السقوف والتى يحمل كل منها نكهة خاصة وطبيعة مميزة ومنها "سوق الحرير" و"سوق البزورية" إلا أن أكثر الأسواق الشعبية شهرة هو "سوق الحميدية" والذى يعود زمن بنائه إلى عام (١٨٦٣) خلال حكم السلطان عبد الحميد الذى سمى السوق باسمه، ودكاكين السوق تشتهر ببيع البضائع الشعبية كالعطور والملابس والفواكه المجففة والأعشاب الطبية.

وقد زار السوق فى القرن التاسع عشر الراحلة الإنجليزى بورتر فوصفه قائلا: "تجدر زيارته من كل سائح لتأمل الأزياء العديدة والمعروضات الثمينة من السيوف الدمشقية والبورسلين القديم والدروع والأسلحة المطعمة بالذهب والفضة والثياب الموشاة بالذهب وأنواع السجاد الشرقى الثمين".

ويبلغ طول السوق (٦٠٠) مترا وعرضه (١٥) مترا ويتكون من طابقين، ومنذ أكثر من (١٢٥) ظل السوق يشتهر بـ"الأيس كريم" المصنوع يدويا ، من خلال مجموعة من الصناع المهرة الذى توارثوا المهنة عن آبائهم وأجدادهم .

والمدخل الرئيسى للسوق مواجه للبوابة الرئيسية للجامع الأموى الكبير ويحيط بالسوق عدد من أهم الآثار السورية فعلى يمينه تقع قلعة دمشق الشهيرة التى يتقدمها تمثال صلاح الدين الأيوبى وضريحه ويجاوره كذلك "المكتبة الظاهرية" التى أنشأها "الظاهر بيبرس" إبان فترة حكمه لدمشق، وفى نهاية السوق يوجد مقهى "النوفرة" والذى يقدم لرواده الشاى والقهوة والنرجيلة، ولعل موقع المقهى المميز خلف الجامع الأموى مباشرة أكسبه شهرة كما أن ساحته الجميلة المرصوفة بالأحجار البازلتية السوداء، أكسبته رونقا ومنظرا خاصا .

ولكى تصل إلى مقهى "النوفرة" يجب أن تخترق سوق الحميدية حتى تصل إلى عتباته الثلاث وشرفاته التى يشتهر بها ، وتتسع الصالة الداخلية به إلى (٢٤) طاولة يجلس على كل منها أربعة أشخاص، أما الصالة الخارجية فتتسع لاثنتى عشرة طاولة يجلس على كل منها شخص واحد فقط، وسمى المقهى بهذا الاسم نسبة إلى "النافورة" الموجودة أمامه والتى يتراوح ارتفاعها ما بين (٤) إلى (٥) أمتار ويرجع بناؤها إلى أكثر من (٢٠٠) عام هى عمر المقهى نفسه .

وأهم ما يميز هذا المقهى اليوم هو شخصية "الحكواتى" الذى يملأ أجواء المقهى بالسير البطولية الشعبية من خلال الحكايات التى يرويها .

ويبدو أن الجو الأسطورى والنكهة الخاصة التى يمتاز بها "سوق الحميدية" بدمشق والذى يشبه بصورة ما - شارع خان الخليلى - بالقاهرة أغرى عبد الله النحاس الذى جاء من سوريا إلى مصر إبان فترة الوحدة بين البلدين فى بداية الستينيات من القرن العشرين بأن ينشأ مقهى على غرار مقهى "إلنوفرة" وأطلق عليه اسم "سوق الحميدية" وهو يواجه تماما ميدان باق اللوق، وألحق به "صالون الآيس كريم" والذى يشتهر به "سوق الحميدية" فى دمشق، بحيث يُتناول رواد المقهى "الآيس كريم" وهو يدور شئون، وقد اجتذب "المقهى" عددا كبيرا من المثقفين والفنانين الذين ارتبطوا بالمكان وارتبط بهم مثل الكاتب عباس الأسوانى، والشاعر أمل دنقل والكاتب الصحفى عبد الوهاب مطاوع، كما كان يرتاده بعض الفنانين فى بداياتهم الفنية مثل عادل إمام ويونس شلبى وسعيد صالح ومحمد نوح وعبد الرحمن عرنوس، والذى قدم عدة عروض لما كان يسميه بمسرح المقهى، وكانت عبارة عن مسرحيات قصيرة مثل "عوضين" و"ما الذى حدث فى الصالة" و"الفخ" وغيرها من العروض التى لاقت إقبالا جماهيريا وكانت عنصر جذب للمقهى.

وقد ظل "صالون الآيس كريم" العلامة البارزة على نشاط المقهى إلى أن تم إلغاؤه فى نهاية الثمانينيات وتحول إلى مكان يقدم الشاى والقهوة والعصائر بأنواعها المختلفة.

ورغم هذا التحول فقد احتفظ "سوق الحميدية" بزبائنه القدامى، بل ارتبط به كثير من أدباء الجيل الجديد الذين يواظبون على حضور الصالون الثقافى الذى يقيمه الناقد فاروق عبد القادر - كل يوم أحد -

بداخله، والذى يناقش قضايا ثقافية متنوعة، ومتابعة أحدث الإصدارات.

ويؤكد طلال النحاس - صاحب المقهى - أنه رغم تحول "سوق الحميدية" إلى مقهى، فإنه لم يفقد رواده، وأنه كصاحب مقهى لا يرغب في الربح ذلك لأن ربحه الحقيقي يكمن فى نجاحه فى اختيار زبائنه، نظرا لاختلاف "المقهى" عن باقى المقاهى، فهو لا يقدم الشيشة أو ألعاب التسلية ويعد "ناصر محمد على" من أقدم العمال فى المقهى إذ يعمل به منذ عام (١٩٩٤) منذ أن كان صبيا فى الخامسة عشرة من عمره.

ومن رواد المقهى من الأجيال الجديدة القاصة نهى محمود والتى تصفه قائلة: "فى الأيام التى استيقظ فيها مبكرا تملأ أنفى رائحة بن عبد المعبود وأشعر نسمة الهواء تنتظرنى فى مقهى سوق الحميدية، أشعر بحنين لفنجان قهوة من يد أحمد فتى المقهى اللطيف صاحب الابتسامة الدائمة والتحية الصادقة الذى يعاتبك إن غبت يبلغك رسائل من سألوا عنك وأخيرا يضع أمامك فنجان قهوتك ويتركك مع حنينك لصباح هادئ.

يتسلل رفاق الحنين الصباحي للمكان جميعهم يشبهونك محملين بحنين غامض ورغبة فى هدوء غير حقيقى سيسفدونه حال تجمعهم الوشيك بالحكايا وتبادل الأخبار وأخيرا النظر فى الساعات والمغادرة للعمل الذى غالبا ما يكون ذا صلة بالكتابة والصحافة".

جروبى
الحياة على الطريقة الأوروبية

في ميدان "طلعت حرب" "سليمان باشا سابقا" يطل المبنى الرئيسي لمحلات "جروبي" بالقاهرة، الذي بني على الطراز الإيطالي، يحمل تاريخا تجاوز المائة والعشرين عاما، عمره - يقارب عمر الميدان تقريبا -، ويعد أهم معالمه بجوار العمارات التي بنيت على الطراز الباريسي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

المكان يحمل سمات أرستقراطية خاصة، حين تدلف إليه لأول وهلة تحس كأنك واقف على إحدى عتبات التاريخ، وتحس - أيضا - كأنك تحادث شخصيات من الماضي، وكأن رائحتها لم تزل في جنبات المكان وأن آثار أقدامها لم تزل في بلاطاته المزركشة شديدة النظافة والنصوع، رغم أن الزمان قد تبدل والشخصيات قد ذهبت وجاءت بعدها أجيال متعاقبة ومختلفة.

"جروبى" الذى كان ـ ذات يوم ـ المكان المفضل لعائلات الطبقة الراقية من الباشوات والإقطاعيين وأصحاب النفوذ فى الدولة، وكبار التجار والملاك ـ يقضون فيها أوقات فراغهم ولهوهم، ومواعيدهم الغرامية، فيه نشأت كثير من قصص الحب والتعارف بين العائلات المختلفة، ومن منتجاته الراقية من "الحلوى" امتلأت موائدهم فى احتفالاتهم المتعددة.

على مقاعده وطاولاته جلس ملوك ورؤساء وأمراء من كافة دول العالم، الذين زاروا مصر عبر سنوات طويلة وفى أركانه تغيرت سياسات، وتكونت صادقات، وألفت وزارات، ومنحت شارات من البكوية والبشاوية فى سهرات "الملك" صاحب المغامرات الكبرى فاروق الذى كان أحد رواد المكان.

كما شهد "جروبى" عبر تاريخه الطويل نجوما سطعوا فى عالم الفن كانت بداياتهم على مقاعده لعل أشهرهم عمر الشريف وأحمد رمزى ورشدى أباظة، الذين كان يسهر ثلاثتهم كل ليلة فى "جروبى" يسكرون حتى الصباح ولم يكونوا وقتها يحلمون بأن يكونوا نجوما للشباك فى عالم السينما، إلى أن لعبت الصدفة دورها معهم ـ فى هذا المكان ـ فتعرف المخرجون وصنّاع السينما ـ وقتها ـ عليهم فبقدموهم فى أدوار البطولة ليصبح الثلاثة فرسان السينما المصرية والعربية فى الخمسينيات والستينيات، ونماذج أخذت بعقول الشباب فى تلك الفترة.

وكان من رواد المحل ـ أيضا ـ الموسيقار محمد عبد الوهاب، والذى اختار المكان ليصور فيه واحدا من أهم مشاهد فيلمه "الوردة

البيضاء" مع الفنانة راقية إبراهيم، وهو المشهد الذى تذهب فيه بطلة الفيلم لتطلب "أيس كريم" مثلّج "جلاس" وبالمصادفة تلتقى ببطل الفيلم - الذى كان يتناول أحد منتجات المحل - ثم تبدأ الأحداث الدرامية للفيلم حين تذهب "راقية" إلى خطيبها الذى يعمل طبيبا، وهناك تلتقى بنفس الشاب الذى قابلته فى "جروبى" وهنا تشتكى من ألم فى أسنانها، فيقول لها عبدالوهاب الجملة المشهورة فى الفيلم "علشان تبطلى تاكلى جلاس.. وتدوبى فى قلوس الناس".

فكان مشهد "أللقاء الأول فى جروبى" هو العنصر الدرامى الذى قامت عليه القصة بعد ذلك.

وكان "جروبى" كذلك ملتقى للأدباء العرب والمصريين أمثال محمود درويش وسميح القاسم وسعدى يوسف وعبد الوهاب البياتى وعبد العزيز المقالح وعلى الدمينى وبهاء طاهر وصلاح عبد الصبور وألفريد فرج وغيرهم.

***

يرجع تاريخ محلات "جروبى" إلى نهاية القرن التاسع عشر، كإحدى الظواهر المعمارية التى شهدتها مصر فى تلك الفترة، خاصة بعد افتتاح قناة السويس، حيث أراد إسماعيل باشا أن يجعل القاهرة - على حد تعبيره - قطعة من أوروبا فأدخل عليها كثير من التعديلات فأنشأ القصور، والميادين، التى زينت بالتماثيل، فتحقق له ما أراد - خاصة من الجانب الشكلى - كل ذلك من أجل أن يظهر أمام ملوك وأمراء أوروبا الذين دعاهم لحضور حفل افتتاح القناة بمظهر الملك المتمدن العصرى.

ومن هذه الميادين التى أنشأها ميدان الأوبرا وميدان الرميلة، وأنشأ مجموعة من الشوارع الرئيسية مثل شارع محمد على - القلعة حاليا - وشارع عبد العزيز وشارع عابدين وأنشأ كذلك ميدان الإسماعيلية - التحرير حاليا - ولم يكد يمر عام (١٨٦٩) حتى أكمل إسماعيل هذه المشروعات الضخمة، لتواكب زيارة الإمبراطورة "أوجينى" لمصر لحضور حفل افتتاح قناة السويس.

وقد وصف على باشا مبارك فى كتابه "الخطط التوفيقية" ما تم فى عهد إسماعيل بأنه "من أبهج أخطاط القاهرة وأعمرها" وكان من الميادين التى تم تحديثها ميدان "سليمان باشا".

وكانت الأحياء الجديدة مصدرا لجذب الجاليات الأجنبية "اليونانية والإيطالية والفرنسية واليهودية" والتى استفادت من نظام "الامتيازات الأجنبية"، فسكنت هذه الجاليات ذات الثروة والنفوذ الأحياء الراقية مثل الزمالك وجاردن سيتى ومصر الجديدة.

وبدأت هذه الجاليات تروّج للنمط الأوروبى فى الاقتصاد والتجارة فراحت تقيم مشاريع تجارية تقوم على أسس غربية لتفتح مجالات تسويقية وصناعية خاصة فى صناعة المنسوجات والملابس فأنشأت محلات كبرى مثل "هانو" و"شيكوريل" و"بنزايون" و"عدس" وريفولى" وغيرها.

ومن تلك المشاريع ما فعله "جاكى جروبى" بإنشائه لمحلات ومصانع حملت اسمه يقوم نشاطها على إنتاج وتوزيع الحلويات الغربية والتى لاقت رواجا فى السوق المصرى، نظرا للجودة التى

كانت تتميز بها هذه المنتجات من ناحية، ومن ناحية أخرى أنها كانت التجربة الأولى لمثل هذه المنتجات في مصر.

وترجع أصول "جاكي جروبي" والمولود عام (١٨٦٣) إلى قرية جبلية صغيرة تحمل اسم "رفيو" في منطقة ستين السويسرية على الحدود الإيطالية لأسرة فقيرة، لكنه في سن السادسة عشرة تعلم صناعة الحلويات، مما أهله للسفر إلى فرنسا، وفي مدينة مارسيليا بالتحديد تقابل مع رجل الأعمال جيانولا والذي نصحه بالذهاب إلى مصر ليبدأ مشروعه الاقتصادي وعملا بنصيحة صديقه حمل "جروبي" أحلامه وتطلعاته إلى القاهرة ليقيم أول مصنع للشيكولاتة في شارع "البواكي" بمنطقة الأزبكية، ثم طور من نشاطه ليذهب إلى الإسكندرية، وهناك تعرف على زوجته "أيجوني بينكا لاني" والتي كانت تنتمي إلى أسرة ثرية تمتلك مجموعة من المحلات، فساعدته هذه الزيجة في تطوير صناعته فافتتح مصانعا لإنتاج "الكريم شانتي" ثم مصنعا لمنتجات الألبان، وبعد مجموعة من المضاربات في البورصة والصراع التجاري، فقد جزءا كبيرا من ثروته مما جعله يعود مرة أخرى إلى القاهرة، وبها اشترى محلا كبيرا بالقرب من دار الأوبرا الملكية، يطل على شارع عبد الخالق ثروة، وكان ملحقا بالمحل حديقة صغيرة استغلها ابنه "أكيلي" لإقامة مقهى صغير يتم في تقديم الشاي والحلويات.

وبدأت تتوافد على المحل العائلات الارستقراطية وكبار رجال الحكم.

وفى عام (١٩٢٢) أقام "جروبى" مصنعا للثلج والذى كان يمد القاهرة - وقتها - بما يقرب من (٢٤٠٠) لوح من الثلج يوميا ، وساعدته زيادة رأس المال على افتتاح فرع جديد فى ميدان "سليمان باشا" - وهو الموجود حاليا - يضم مطعما فاخرا على الطراز الباريسى وبارا ، يقدم فيه أكثر من (٢٠) نوعا من النبيذ ، وكان ملحقا به - فى أول إنشائه - حديقة بها شاشة للسينما ومسرح صغير ، وقاعة للرقص .

ومع تقدم السن ترك "جاكى جروبى" إدارة المحل لابنه "أكيلى" وعاد هو وزوجته إلى قريته "رفيو" ليقضى بها سنواته الأخيرة حيث توفى عن عمر يناهز التسعين عاما فى سنة (١٩٥٨) .

أما "أكيلى" فكان صاحب عقلية تجارية متميزة فعمل على تطوير منتجاته فأقام عام (١٩٣٦) مصنعا للأيس كريم ، الذى كان يتم توزيعه على تروسيكلات معدة خصيصا لذلك كانت تجوب المدن والمحافظات .

ومن الطرائف التى تروى فى هذا الإطار أن الملك فاروق قد طلب من محلات "جروبى" مئة كيلو من الشيكولاتة الفاخرة ليهديها لابنة ملك بريطانية - الأميرة إليزابيث - وقتها والتى أصبحت حاملة للتاج البريطانى حتى الآن .

وقد تعرضت محلات "جروبى" للتدمير فى حريق القاهرة فى (٢٦) يناير (١٩٥٢) ، لكن تم تجديدها وأعيد افتتاحها مرة أخرى فى ديسمبر من نفس العام .

ولم تزل محلات "جروبى" تقدم منتجاتها من "الأيس الكريم" الفاخر، بالإضافة إلى المشروبات العادية مثل القهوة والشاى، وإن اختلفت نوعية التقديم، حيث تقدم هذه المشروبات فى فناجين صينى، وفى أسلوب أوروبى، بداية من "اليونى فورم" الذى يلبسه النادل. والطاولات والكراسى الفاخرة، والتى توحى بعراقة المكان. ونهاية بهذا الجو الساحر المغلف بالأسطورة ورائحة التاريخ.

مقهى المسيرى
أدباء على الرصيف

للمقهى عالمه الخاص، فالرواد يعرف بعضهم البعض، والحكايات تدور من طاولة لأخرى فى جميع الأمور، وللمقاهى الأدبية فى مصر أثر فعال منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى بدايات القرن الحادى والعشرين.

ومن أهم المقاهى التى اشتهرت بها القاهرة حيث كان يرتادها أصحاب الفكر والرأى "قهوة أنطون"، ويعد أقدم مقهى أدبى فكان يجلس عليه جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وسليم تكلا ـ مؤسس الأهرام ـ والشاعر محمود سامى البارودى وعبدالله النديم.

ثم توالت المقاهى الأدبية بعد ذلك مثل مقهى "متاتيا" بالأزبكية ثم مقهى "الأدب" بحى الحلمية وغيرها حتى انتهت بمقهى "ريش" فى النصف الثانى من القرن العشرين، و"زهرة البستان" فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحالى.

هذا حال العاصمة الثقافية فى مصر، أما فى الأقاليم فقد ظهرت بعض المقاهى التى لعبت دورا بارزا فى الحياة الثقافية والسياسية، وكان أشهر هذه المقاهى مقهى "المسيرى" بدمنهور لصاحبها الأديب "عبدالمعطى المسيرى" والذى كان بمثابة جامعة أهلية تخرج فيها عدد كبير من أبرز الأدباء والفنانين والشعراء الذين ساهموا ـ بقدر كبير ـ فى منظومة الثقافة العربية من أمثال محمد عبدالحليم عبدالله ـ وأمين يوسف غراب، ومحسن الخياط ويوسف القعيد، وخيرى شلبى ورجب البنا ومحمد صدقى وفتحى سعيد وغيرهم.

وينسب المقهى لعبدالمعطى المسيرى المولود فى عام (١٩٠٩) فى إحدى حارات دمنهور لأب متواضع الحال يملك مقهى صغيرا، فاضطر إلى أن يعمل فى المقهى منذ الصغر وقد نما وعى عبدالمعطى المسيرى من خلال عالم المقاهى الصاخب حيث زخم مفردات الحياة، فالمقهى كان مصبا لكل أنواع البشر باختلاف معتقداتهم وميولهم وانتماءاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فتفتح وعى الصبى على حكايات الوطن والأحزاب والإنجليز والثورة وغيرها من الأشياء التى أيقظت قيمة الانتماء بداخله.

ومن أهم الأشياء التى جعلت المسيرى يهتم بالأدب تلك الطقوس التى كان يقوم بها الشاعر أحمد محرم فى ركنه الخاص بالمقهى حيث يكتب ويعد مادة الجريدة التى كان يصدرها ـ فى ذلك الوقت ـ فكان المسيرى يعتمد تجهيز المكان بنفسه للشاعر الكبير ويظل قريبا منه.

المكتبة والنصبة

وقد اختار المسيرى المكان المجاور للنصبة وخصصه للكتب والمجلات والجرائد.

وبدأ التفاعل بين رواد المقهى من خلال إهداء الكتب أو الشراء أو الاستعارة، وبدأ أعلام الفكر المصرى يتوافدون على المقهى ومنهم يحيى حقى، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم ومصطفى صادق الرافعى، وزكى مبارك ومحمد حسن الشجاعى وغيرهم، وفى العدد الأول من جريدة "المجلة" التى كان يصدرها يحيى حقى يقول حقى فى المقالة الافتتاحيه "ذلك المثقف أو الأديب الذى يفكر فى زيارة مدينة دمنهور - مدينة التاريخ القديم - والتجار الشطار لكى يتعرف إلى صور الحياة وعادات الناس هنا، لابد وأن يجلس على رصيف مقهى المسيرى الذى يمثل ظاهرة مهمة عند أبناء المدينة المثقفين والأدباء والزجالين". ويقول الصحفى الكبير رجب البنا فى مقال نشر فى الستينيات "وعبدالمعطى المسيرى ينتمى إلى طائفة سقراط فأعظم ما تركه ليس كتبه، ولكن عظمته تكمن فى أنه كان صاحب مدرسة فى دمنهور، فمقهاه - كان حقيقة - مدرسة وتلاميذ المسيرى اليوم فى كل مجلة وصحيفة وفى الإذاعة والتليفزيون".

وبالفعل كان عبدالمعطى المسيرى محامى المواهب الفنية والأدبية فى الأقاليم، قبل أن يعرف ما يسمى - الآن - بمؤتمر أدباء الأقاليم، وله مقال نشر فى الخمسينيات فى جريدة "المساء" بعنوان "الميثاق والثقافة فى الريف" ناقش فيه دور المثقف والفنان الريفى، وتساءل خلاله - عن متى تكون عاصمة كل إقليم قاهرة كبرى؟

ويقول الروائي أمين يوسف غراب في مقال نشر في جريدة "وطني" في يوليو (١٩٦١) "رصيف مقهى المسيرى كان ملجأ الأدباء والكتاب، كان البوتقة التي صهرت عقلي ووجداني وتفكيري وشعوري بفضل جماعة الأدباء والكتاب هناك" ويقول المفكر الكبير محمود أمين العالم: "صاحب المقهى الأديب عبد المعطي المسيرى استطاع بكتابه في القهوة والأدب الصادر عام (١٩٣٦) أن ينتزع من رأسي فلسفة أفلاطون ومثالياته".

العميد والمسيرى

بدأت العلاقة بين الدكتور طه حسين وعبدالمعطي المسيرى بعد المقالة التي نشرها د. طه حسين بجريدة "الوادى" وانتقد فيها الأدباء الشبان في ذلك الوقت خاصة الشاعر إبراهيم ناجي والقاص إبراهيم المصرى، فقد رأى المسيرى أن نقد العميد قد جاء محبطا فعقد في مساء اليوم نفسه ندوة على رصيف المقهى بدمنهور، ناقش خلالها ما كتبه د. طه حسين، وفي اليوم التالي كتب مقالة بعنوان "في الثقافة" يرد بها على طه حسين وأرسلها إلى نفس الجريدة، وفوجئ بنشرها بالإضافة إلى مقال لطه حسين بعنوان "في تنظيم الثقافة" في بابه المعروف "حديث الأربعاء" بتاريخ (١٩ / ٩ / ١٩٣٤)، أثنى فيه على الأسلوب الأدبي للمسيرى، وبعدها كتب "العميد" المقدمة لأول إنتاج أدبي للمسيرى وهو كتاب "في القهوة والأدب" الذى ترجم إلى العديد من اللغات، وأثنى عليه "أغناطيوس كراتشفوفسكي" عميد كلية الآداب الشرقية بموسكو في الثلاثينيات من القرن الماضي.

أما عن علاقة الأدباء بالمقهى فيقول الروائى الكبير خيرى شلبى: "أذكر أننى قرأت فى مقهى المسيرى أول مرة تحقيقا أدبيا كتبه القاص محمد صدقى فى أوائل الخمسينيات بعنوان أدباء على رصيف المقهى وكنت فى وقت الإجازة الصيفية فى قريتى، وكنت قد سمعت نبأ المقهى قبل ذلك بقليل من خلال أستاذين لى فى معهد المعلمين كلاهما من مدينة دمنهور نفسها، وهما الأستاذ الأنصارى محمد إبراهيم - مدرس اللغة العربية -، الذى كان مفتونا بالأدب القصصى، فيتوهج وهو يشرح لنا رائعة محمود تيمور أبو الهول يطير التى كانت مقررة علينا وكان ينتهز الفرصة - دائما - ليحدثنا عن أدباء دمنهور والبحيرة بشكل عام، وعن مقهى المسيرى بشكل خاص، التى رفع أدباؤها شأن دمنهور، فلما قرأت تحقيق الأديب محمد صدقى بهرنى وقررت أن أكون من رواد المقهى فذهبت بالفعل وقدمت نفسى للأستاذ عبدالمعطى المسيرى الذى استقبلنى بحفاوة كبيرة جدا، وأوسع مكانا لى بجواره، وراح يسألنى بعض الأسئلة عن هوايتى ودراستى وعن آخر كتاب قرأته ورأيى فيه وعن كُتابى المفضلين ولماذا عشقت فن القصة بالذات.

أذكر أننى لم أتلعثم فى الإجابة عليه لأنه شجعنى بحب شديد وأعطانى الألفة والحميمية فأزال الغربة عنى فى الدقائق الأولى فكأنى أعرفه منذ سنوات بعيدة"

ويضيف خيرى شلبى "ولما عرف الأستاذ اسم بلدتى البعيدة التابعة لمحافظة أخرى نظر فى زهو كبير وقال: المقهى وصل صيتها إلى بلدتكم، إننى والله مسرور بانضمامك إلى رواد المقهى".

وقد تعمقت صلتي بالأستاذ وبالمقهى فعرفت فيها أبا ومعلما وفيلسوفا ترتاح له النفس وتطمئن وعرفت في المقهى بيتا رحيبا آمنا يحتضن أحلامنا وينميها ويحولها إلى حقائق.

وبالفعل كان المسيرى أبا لكل الأدباء الذين ارتادوا مقهاه فقد كان حركة الوصل بين الأعضاء بعضهم البعض، وكان ينزعج جدا إذا اكتشف أنه نسى أن يعرف أحدا بأحد وكأنه ارتكب جرما عظيما فكان بأخلاق الفرسان يسرع في الحال بالاعتذار في رقة شديدة، ثم يلخص شخصية كل أديب للآخر تلخيصا دقيقا فيه ما يحب الواحد أن يعرفه عن الآخر، وإذا ترك أحد الأدباء كتابا لصديقه فإن المسيرى كان يوصله إليه بود بالغ.

ومن مظاهر أبوته الفياضة أنه كان يتابع أخبار الشباب المبدع باهتمام يفوق اهتمامه بأى شىء آخر في حياته فكان أسعد خبر يمكن أن يتلقاه في حياته هو ما اختص بنشاط الشبان، فإذا ما نشرت مجلة ما تحقيقا حول الزجال "حامد الأطمس" تراه يطيرفرحا وإذا استمع إلى قصيدة نشرتها الجمهورية للشاعر فتحى سعيد يقول "ما أعظم هذه الجريدة التى تهتم بأدب الشباب، وإذا استمع إلى أغنية للشاعر سعيد أبو النصر في أجازته الإذاعية تراه يدعو الله للشاعر "أن يفك نحسه ويأخذ بيده".

وإذا نما إلى علمه أن القاص "رجب البنا" والذى كان طالبا ـ وقتها ـ في كلية الحقوق جامعة الإسكندرية، قد كتب قصة جديدة بادر المسيرى بإقامة ندوة يحضرها جميع الأدباء لمناقشتها، وفى ظل

اهتمام المسيرى بالأدب والأدباء فى دمنهور استطاعت "جمعية الأدباء" التى كان يرأسها أن تلفت الأنظار بشبابها المبدعين الجدد - فى ذلك الوقت - وأن تقيم الندوات والأمسيات فى القاهرة والأقاليم المختلفة، كذلك كان معظم أدباء القاهرة الكبار يقومون بزيارات متكررة للمقهى فتقام لهم الندوات والأمسيات.

وظلت "جمعية أدباء دمنهور" تقوم بدورها الرائد فى تشكيل الوعى الثقافى لأدباء المحافظة وما جاورها من محافظات حتى سافر عبدالمعطى المسيرى إلى القاهرة لإقامة فيها حيث عمل موظفا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب وظل يعمل هناك حتى وفاته فى (٢٩) سبتمبر (١٩٧١).

مواقف جريئة

ويذكر للمسيرى جرأته وشجاعته وذلك عندما طالب أيام حكم الملك فاروق بتغيير شارع فؤاد - وهو الشارع الرئيسى فى دمنهور - إلى اسم أحمد عرابى، وقد كان وقتها عضوا بالمجلس البلدى لمحافظة البحيرة، وقامت الدنيا ولم تقعد، وشاءت الأقدار فقامت ثورة (٢٣) يوليو (١٩٥٢) ووافقت حكومة الثورة على طلبه فقامت بتغيير اسم الشارع إلى شارع أحمد عرابى تخليدا لذكرى الزعيم المصرى الكبير.

واهتمام المسيرى بالأدب لم يكن مقتصرا على اهتمامه بأدب الأقاليم فى الوجه البحرى - فقط - بل امتد أثر هذا الاهتمام إلى محافظات الصعيد أيضا، ومن المواقف العجيبة فى حياة المسيرى، أنه

بعث للزعيم جمال عبدالناصر رسالة يشكو فيها عدم الاهتمام بثقافة الأقاليم ومبدعيها وقصر الاهتمام على القاهرة وأدبائها، وقال له في الرسالة: "لابد من تفتيت الإقطاع الثقافي المسيطر في القاهرة".

فكان أن أرسل إليه جمال عبدالناصر، أنور السادات - عضو مجلس قيادة الثورة - حينذاك - لكي يتعرف على مشاكل أدباء دمنهور الثقافية، وقد زار السادات المقهى وحضر إحدى الندوات الثقافية التي أقيمت خصيصا بهذه المناسبة وسلمه السادات رسالة من جمال عبدالناصر يعبر فيها عن مدى إعزازه وتقديره للدور الرائد الذي يقوم به عبدالمعطي المسيري.

مقهى الوحدة الوطنية

وإذا كان المسيري "قهوجيا" متفردا فقط كان بالمثل مثقفا متميزا وشخصية قيادية من الدرجة الأولى، كان يمشي وراءه ثلاثون مثقفا ومبدعا يذهب بهم إلى كل مكان، فكان يقيم ندواته بالكنيسة وكانت له علاقة وثيقة بالقس بولس رجل الدين المسيحي المثقف بدمنهور، وكان الأب بولس شاعرا أيضا، ومن رواد مقهى المسيري المعروفين، ويبقى لمقهى المسيري دور رائد في تحريك الشعور الثوري لدى الطبقات الكادحة للشعب المصري إبان حرب (١٩٤٨)، حيث خرجت المظاهرات من المقهى مناصرة لشعب فلسطين، وأصبح المقهى غرفة عمليات وفي حالة تأهب مستمر.

وفي ثورة (٢٣) يوليو (١٩٥٢) خرجت جموع المثقفين إلى شوارع البحيرة مؤيدة للضباط الأحرار.

وهكذا كان لعبد المعطى المسيرى.. ذلك الرجل الذى يصفه الروائى الكبير خيرى شلبى بأنه "ذو منظر جذاب حقا برأس دقيق غزير الشعر، دقيق الملامح، غزير الانفعالات، كثيف الظلال، ينبعث منه إشعاع مرطب للأعصاب المرهفة، كذلك الذى ينبعث من أجهزة التكييف داخل الغرف الأرستقراطية"

ذلك الرجل كان له دور فاعل فى الحياة الثقافية ولا يزال من خلال ما تركه من تراث أدبى يتكون من ثلاثة كتب هى "روح ولا جسد" و"مشوار طويل" وكتابه الأشهر "فى المقهى والأدب" ومن خلال تلامذته رواد مقهاه الذين أصبحوا - الآن - ملء السمع والبصر.

مقاهى الزمن الجديد

ترتبط الأجيال الجديدة بعدد من المقاهى في وسط البلد ـ رغم أن بعضها يعود تاريخ تأسيسه إلى أكثر من (٨٠) عاما مثل مقهى "الحرية" الذى يعود زمن تأسيسه إلى عام (١٩٣٦) وهو مازال يحتل جزءا من واجهة ميدان "باب اللوق" ، وقد أسسه يوسف أفندى الموظف ـ وقتها ـ في شركة تقسيم الأراضى بالمعادى ، وأحد أقاربه ويسمى "مرقص ميخائيل" والذى كان يعمل محاسبا في إحدى شركات بيع الأقمشة وكان السبب الرئيسى لإنشائهما المقهى هو وجود قريب لهما يدعى "نقولا" عاطل عن العمل ، ليكون المقهى بداية جديدة لحياته ، وقد تأسس المقهى برأس مال قدره (٣٥٠) جنيها ، ولعل من أكثر الفترات التى شهدتها رواجا للمقهى فترة الحرب العالمية الثانية حيث كان الجنود الإنجليز يفضلون الجلوس عليها نظرا لجودة مشروباته وعدم ارتفاع أسعاره .

وكان يعمل به (٦) عمال يونانيين يرتدون زيا موحدا عبارة عن بدلة سوداء وفوطة بيضاء ملفوفة فوق النصف العلوى للبنطلون وغطاء للرأس وكان من أشهر رواده من المثقفين زكريا أحمد والدكتور محمود الحفنى المؤرخ الموسيقى الشهير والرئيس الراحل أنور السادات والفنانين رشدى أباظة وأحمد رمزى وعبدالرحيم الزرقانى وشكرى سرحان وزكريا الحجاوى والشيخ أحمد حسن الباقورى ولاعبا الكرة مختار التيتش وعبدالكريم صقر، والمخرج حسن الإمام.

وكان يوجد بالمقهى قديما "صالون للحلاقة" خاص بالزبائن الذين يرتادونه وكان تسعيرته حتى بداية الستينيات (٥) قرش.

والمقهى مشهور - حتى الآن "بمشروب البيرة "ستيلا" بالإضافة إلى المشروبات العادية من الشاى والقهوة واليانسون، ويرتاده عدد من أدباء جيلى الثمانينيات والتسعينيات، مثل علاء الاسوانى ويوسف أبو رية وعبدالمنعم رمضان وإيمان مرسال وهدى حسين وحمدى أبو جليل.

وعلى بعد خطوات قليلة يوجد مقهى "سوق الحميدية" وكان هو المكان المفضل للناقد الراحل فاروق عبد القادر وبجواره فى عمارة "البدراوى" يقع مقهى "الندوة الثقافية" والذى بدأ العمل به عام (١٩٦٢) - بعد أن أسسه محمد حسانين وأولاده رشاد وعلى وجلال - ودفعهم تجمع المثقفين والأدباء على مقهاهم إلى تسميته "الندوة الثقافية".

ويتميز هذا المقهى بخاصيتين الأولى: وجود صوت "القرآن الكريم" طيلة الوقت، مما يعطى للمكان طقوسا خاصة أهمها الهدوء والطمأنينة. أما الخاصية الأخرى: فهى أن هذه المقهى يكاد يكون المقهى الوحيد الذى يقدم "نرجيلة التنباك" - رغم ارتفاع سعره - فالنرجيلة من أهم خصائص المكان.

وكان من أهم رواده قديما: نجيب محفوظ ويوسف القعيد وجمال الغيطانى وتوفيق صالح ومحمد الدفراوى ومحمد سليمان وخالد الصاوى.

وهناك أيضا مقهى "استراند" بباب اللوق والذى يوجد أسفل عمارة استراند الشهيرة، والذى يعقد عليها الروائى علاء الأسوانى ندوته الأدبية والأسبوعية.

وفى ميدان التحرير يوجد مقهى "وادى النيل" والذى اكتسب شهرته بعض تعرضه لضرب الجماعات الإرهابية عام (١٩٩٣)، وقد أعيد افتتاحه فى حفل جماهيرى كبير حضره مجموعة من المثقفين كان منهم المفكر الراحل د. فرج فودة والنجم عادل إمام، وقد تم توثيق هذا الحفل فى فيلم تسجيلى تحت عنوان "قهوة مضبوط للوطن.

وخلال العشرين عاما الماضية برز مقهى "زهرة البستان" ليحتل صدارة المقاهى الأدبية، ربما لتميزه المكانى ولقربه الشديد من مقهى "ريش" الذى تحول رواده - بعد إغلاقه - إلى زهرة البستان والذى كتب أصحابه على واجهته عبارة لافتة هى "ملتقى الأدباء والفنانين"، وهى

عبارة ربما كانت تصلح في وقت سابق، أما الآن فقد امتلأت مقاعد المقهى بالشباب العاشق الفار من جحيم الأماكن السياحية مرتفعة الأسعار فيجئ ليدخن الشيشة.

مع ذلك يوجد هامش للثقافة على المقهى حيث يجئ إليها المثقفون من مختلف التيارات والأجيال، ومن أشهر رواده الروائى إبراهيم عبدالمجيد والشاعر إبراهيم عبدالفتاح والشاعر إبراهيم راود حيث يجتمع الثلاثة ليتنافسوا في لعبة الطاولة كل مساء، ومن رواده الدائمين الشاعر سعدني السلاموني والشاعر محمود قرني والشاعر فتحي عبدالله والشاعر عبدالعزيز موافي وكان من رواده الشاعر الراحل محمد عفيفي مطر وكذلك الشاعر رفعت سلام والروائي مكاوى سعيد والكاتب محمد صلاح مراد واللذان أسسا على المقهى دارا للنشر تحمل اسم "الدار" ونشرا من خلالها عشرات الأعمال الروائية والشعرية والفكرية، وعلى "زهرة البستان" خرجت مطبوعات ثقافية مهمة مثل "الكتابة الأخرى"التى أسسها الشاعر هشام قشطة.

ومن أشهر رواد المقهى الراحلين القاص إبراهيم فهمي والذى أقامه له أصدقاؤه سرادقا للعزاء على المقهى في سابقة هي الأولى من نوعها.

وكذلك كان من رواده الروائى الراحل خيرى عبدالجواد والروائى الراحل وفيق الفرماوى والشاعر الراحل محمد الحسيني ومن رواده ـ أيضا ـ الفنان محمد ناجي والمخرج مجدى أحمد علي. والشاعر

العراقي سعدى يوسف والذى وصف المقهى فى قصيدة تحت عنوان "مقهى البستان" يقول فيها :

لا أعرفُ مَن ســمّى هذا المقهى، البستانَ
و لا أدرى سبباً . . .
أعرفُ أن المقهى يحتلُّ تقاطُعَ دربَينِ ذَوَى ورشاتٍ للميكانيك
وأكشاكٍ تَعرِضُ أضغاثاً متناثرةً بين السجّاد وأجهزةِ الهاتفِ والخبزِ البلدىّ،
وأعرفُ أن الفحمَ هو اللونُ هنا فى هذى الزاوية الدكناءِ من العالَمِ . . .
أعرفُ هذا ، وأُسائلُ نفسى : مَن ســمّى البلقعَ بستاناً ؟
مَن جاءَ بما يفترضُ البستانُ : زهوراً ، شجراً ، وطيوراً ، وإلخ . . . ؟
الأشياءُ هنا متداعيةٌ
حتى لم يَعُد المرءُ ليأمنَ كرسيّا .
والشاىُ هنا أسودُ كالفحمِ
إذاً أين البستانُ ؟
أقولُ لكم : إن البستان هو الحُلمُ الأوّلُ بالبستان !

ومن المقاهى الجديدة مقهى "التكعيبة" والذى يقع فى شارع حسين المعمار بميدان "طلعت حرب" ويقع خلف قصر شامبليون، وسمى بـ"التكعيبة" نظرا لوجود عدد من الأشجار التى تتدلى مكونة ما يشبه "التكعيبة"، قد جذب المقهى أدباء جيل التسعينيات أمثال

فارس خضر وعيد عبدالحليم، وعزمي عبدالوهاب، وفتحي عبدالله وصبحي موسى وطارق إمام ومحمد عبدالنبي والطاهر شرقاوي .

وعلى طاولات التكعيبة كانت تعقد لفترة في السابعة مساء كل أحد ندوة أدبية يديرها الشاعر محمود بطوش ولم يتوقف نشاط الندوة على الإمسيات الشعرية ومناقشة الأعمال الأدبية، بل تعدى ذلك إلى نشر إبداعات رواد الندوة من خلال مجهودات ذاتية. وقد اجتذب المقهى رواد التاون هاوس وهو المركز الثقافي المجاور للمقهى والذى تقام فيه معارض للفن التشكيلي ويوجد به مسرح "روابط" والذى تعرض عليه أعمال فرق "المسرح المستقبل"، وتعرض فيه مهرجانات "سينما الموبايل" وغيرها ومن رواد المقهى من الفنانين الفنان جورج البهجورى، والمخرج محسن حلمي والمخرج محمد عبدالخالق، وعدد كبير من شباب الصحفيين.

ومن مقاهي المنطقة مقهى "أفتر إيت" الذى هجره معظم رواده القدامى لكنه مازال يحتفظ بطابعة القديم المعلم فؤاد مهران صاحب المقهى يقول: إنه كان المكان المحبب للمطرب الشعبي شفيق جلال، وكان يتميز بكونه مكانا يلتقي فيه محبو عقد جلسات النكت والإفيهات".

وهناك أيضا مقهى "البورصة" والذى يوجد بجوار مبنى البورصة بشارع الشريفين، ومعظم من يرتاد المقهى لهم علاقة بمجتمع المال سواء كانوا سماسرة أو مستثمرين أو عملاء صغار أو صحفيين، وزادت أهميته الثقافية خاصة بعد افتتاح عدد من المكتبات الخاصة ببيع الإصدارات الجديدة في نفس الشارع الموجود به المقهى.

وعلى بعد خطوات من ميدان طلعت حرب يوجد مقهى "صالح" والذى اجتذب عددا من المثقفين والأدباء منهم سيد الوكيل وطارق إمام وأحمد شافعي وعاطف عبدالعزيز ومحمود الحلوانى وغيرهم ويتميز المقهى بطابعه الشعبى.

أما مقهى "فينكس" فعليه كان يجتمع أدباء جماعة نصوص (٩٠)، د. رمضان بسطويسى، ود. مجدى توفيق وسيد الوكيل وهى جماعة أدبية أصدرت مجموعة من الأعمال الإبداعية والنقدية وكانت فكرتها المحورية هى النصوص وربطها بمرحلة الكتابة فى فترة التسعينيات.

الباب الثالث:

مقاهى الفن



ألحان على طاولة المقهى

المقهى هو كلمة السر فى حياة كبار الموسيقيين فى مصر حيث بدأ معظمهم بالغناء والتلحين وتقديم الفقرات الغنائية على مقاهى القاهرة والإسكندرية وبعض مقاهى الأقاليم فى طنطا والمنصورة وبورسعيد والإسماعيلية .

وكان المقهى - كذلك - هو وسيلة التعارف والتلاقى بين رواد النهضة الموسيقية ، فعلى مقهى "شيبان" بشارع التتويج بجوار حلقة السمك القديمة بالإسكندرية فى عام (١٩١١) سمع الشيخ سلامة حجازى (١٨٥٢ - ١٩١٧) المطرب الشاب سيد درويش البحر (١٨٩٢ - ١٩٢٣) ، فأعجب بصوته ونصحه بالسفر إلى القاهرة والغناء على مسارح الشهيرة وقتها فى "عماد الدين" وكان درويش وقتها فى بداية مشواره الفنى بعد أن أثقل موهبته بحفظ ألحان

الشيخ سلامة حجازى على يد الشيخ حسن الأزهرى والشيخ أحمد ندا "جد المطربة شريفة فاضل والمعروف أن اسمها الحقيقى هو فوقية محمود أحمد ندا" وكذلك وما كانا ينشدانه من السيْرة النبوية وما إليها من القصائد والتواشيح.

وكان درويش قبل لقاء الشيخ سلامة حجازى قد تعرف على الإخوان سليم وأمين عطالله عام (١٩٠٩)، اللذين استمعا إليه صدفة - وكان يعمل وقتها - مناولا لبيّاض محارة فأخذ يغنى للعمال، فأعجبا بصوته الشجى، وأخذاه إلى سوريا فى رحلة فنية، وبعد أن أمضى عشرة أشهر فى هذه الرحلة مع فرقة "سليم وأمين عطالله" عاد إلى الإسكندرية - مرة أخرى - لأنه كان عليه أن يرعى والدته وزوجته وابنه الصغير محمد البحر "وكان درويش قد تزوج وعمره ستة عشر عاما" فعمل كاتبا بمحل لتجارة الأثاث، لكن بعد فترة قصيرة عاوده الحنين إلى الفن فغنى فى بار كوسى ثم فى مقهى شيبان وعلى حسب ما أورده صبرى أبو المجد فى كتابه "زكريا أحمد" والصادر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومى عام (١٩٦٣)، فإن الشيخ زكريا أحمد قد سمع بأن هناك موسيقيا ذاع صيته فى مقاهى الإسكندرية اسمه سيد درويش حيث "نقل السميعة إلى الشيخ زكريا بعض أعمال الشيخ سيد ففتن به، وقرر أن يسعى إليه فى الإسكندرية لينعم بسماعه.. كان سيد درويش وقتئذ يغنى فى أحد المقاهى البلدية مقابل خمسة عشر قرشا كل ليلة، فلاحظ أحد أصحاب الملاهى الأجنبية بميدان المنشية أن الموسيقار العربى يجتذب

الناس من كل حدب وصوب ، فأرسل يعرض عليه الغناء فى ملهاه مقابل ثلاثة جنيهات ذهبية كل ليلة ، فرفض سيد درويش وبرر رفضه بأنه ينسجم فى الغناء بين أبناء البلد لأن هناك تجاوبا بينه وبينهم.. ولكن صاحب الملهى وسط لديه الشيخ زكريا ، وكان قد أصبح من المقربين إليه ، فمازال به حتى قبل وذهب إلى الملهى وغنى ليلة ونجح فيها نجاحا مبهرا ، لكنها كانت الليلة الأخيرة حيث رفض سيد درويش أن يغنى فى ملهى بعد ذلك ، وقال إن الإعجاب الذى أحاطه به المستمعون لم ينفعل به ولم يشعر بأى أثر فى نفسه ولذلك فضل أن يعود إلى المقهى البلدى الذى يتقاضى منه (١٥) قرشا على أن يغنى فى الملهى الأجنبى الذى يدفع كل ليلة ثلاثة جنيهات ذهبية" .

وتجاه هذا الموقف المنحاز إلى قيمة الفن كرسالة ما كان من الشيخ زكريا أحمد إلا أن ذهب إلى الإسكندرية مرة أخرى ـ بعد أن سمع هذه القصة ـ كما يروى الكاتب محمود السعدنى فى مقال نشر بمجلة "روزاليوسف" عام (١٩٥٣) أكد فيه أن زكريا أحمد هو أول من اكتشف سيد درويش ، وهو الذى أتى به إلى القاهرة كما فعل قبل ذلك مع أم كلثوم فيقول السعدنى فى مقاله :

"ذهب الشيخ زكريا إلى كوم بكير ، واخترق الأزقة المظلمة والحارات الموحلة حتى وصل إلى ملهى الشيخ سيد درويش.. وعندما دخل الشيخ زكريا الملهى فوجئ برجل عريض طويل ، يرتدى ملابس المشايخ ويجلس بين أفراد التخت يغنى فى عصبية ،

بينما المستمعون منصرفون عن غنائه إلى الطاولة والكوتشينة وكان الشيخ سيد يغنى لحنا بسيطا عميقا جليلا :

أنا مالى هية اللى قلتلى

روح اسكر وتعالى ع البهلى

وكان أبرز ما فى اللحن بساطته، يمكن أن يغنيه كل إنسان من سيد درويش إلى صبى المقهى، وعندما انتهى سيد درويش من الغناء نظر الشيخ سيد إلى زكريا وقال فى صوت رهيب :

- قوم بينا . . . .

وقام الشيخ زكريا مع الشيخ سيد ودخلا بيتا وصعد إلى الدور الرابع وعلى ضوء الكلوب الباهت راح الشيخ سيد يغنى أحدث ألحانه، وتاه الشيخ زكريا فى غيبوبة ونطح الحائط برأسه أكثر من مرة، ثم أفاق من غيبوبته على ضوء باهر، فظن أن الشيخ سيد استعان بكلوب آخر، ولكنه فوجئ بالشمس تطل عليه من الأفق، وأنه قضى مع الشيخ سيد عشر ساعات كأنها عشر دقائق ولا تزيد . . !

ولم يبت الشيخ سيد بالإسكندرية بعد ذلك، هجر كوم بكير وجاء مع زكريا أحمد إلى القاهرة وقدمه إلى متعهد فنانين يدعى سى محمد عمر كان يحى ليالى رمضان بأحد مسارح عماد الدين بكبار المنشدين والمغنيين أمثال محمد عثمان وصالح عبد الحى والشيخ يوسف المنيلاوى.

لكن درويش لم يستمر معه كثيرا فعلى حد ما أورده محمود السعدنى فى مقاله السابق ذكره : فإن محمد عمر هذا ناول سيد

درويش خمسة عشر جنيها ذهبية كأجر فى أخر الليل فألقى درويش بها على الأرض بعد أن قذفها فى وجهه ولطش محمد عمر قلما وضربه بعصاه الغليظة على رأسه، وقال فى ثورة عنيفه:

ـ بأه تدى ابن عبدالحى "يقصد صالح عبد الحى" ١٠٠ جنيه وتدونا خمستاشر.

وعاد سيد درويش ـ كما يقول السعدنى ـ إلى كوم بكير يعمل بـ(١٥) قرشا كل ليلة! ولكن زكريا أحمد ذهب إلى كوم بكير مرة أخرى وعاد به واشتغل سيد مع نجيب الريحانى وقبض (١٠٠٠) جنيه ذهبا فى شهر واحد وأنفق كل ما ربحه حتى آخر قرش"

***

ولا عجب من هذه القصة، فهذا قدر المتمردين، وسيد درويش بفنه المتجاوز ورؤيته التجديدية وصيغه الموسيقية المبتكرة التى أهلته ليكون "فنان الشعب" كما يلقبه الكثيرون، هو ابن ذلك الشعب بناسه وشوارعه وحواريه ومقاهيه، كان يؤمن أن الفن رسالة وطنية ونهضوية وتنويرية، وقد صدق الأستاذ "أنيس منصور" حين قال ذات يوم ـ فى أحد مقالاته:

"كلما أحس المصرى بأنه فى خطر تمسك بأرضه وعرضه وأعطى حنجرته للسيد درويش ليقولا معا بلادى بلادى، إن السيد درويش هو إيريال عال لمحطة إذاعة وطنية تردد نشيدا واحدا من أجل مصر، ولعل هذا ما حدا بالزعيم محمد أنور السادات أن يختار هذا النشيد شعارا موسيقيا غنائيا كسلام فى عهد السلام".

وهذا المعنى هو ما أشار إليه الناقد الموسيقى عبد الحميد توفيق زكى فى كتابه "أعلام الموسيقى المصرية" حين قال :

"" ونستطيع أن نعتبر سيد درويش فى مقدمة الفنانين الملتزمين سواء بألحانه الوطنية أو بغنائيات الطوائف عمال وفلاحين ومواكبة الأحداث كإضراب الموظفين وغيرها .. بالإضافة إلى صدق التعبير فى المسرح الغنائى بل وفى الألحان العادية التقليدية العاطفية فى كافة قوالبه الموسيقية الشرقية. عندما ولد سيد درويش كان الغناء فى عصره ارستقراطيا منعزلا عن الغناء الشعبى، يستعلى عليه ويرفضه، ومات السيد درويش بعد أن حقق امتزاجا خاصا بين الموسيقى الفنية والشعبية، قرب بين فن الخاصة والعامة، ورفع صوت طوائف الشعب فى الموسيقى" .

***

كذلك كان "المقهى" أول مكان يلتقى عليه الملحن المجدد محمد القصبجى مع سيد درويش - رائد المسرح الغنائى - فمن الصدف الغريبة أن يولد الفنانان الكبيران فى عام واحد وهو عام (١٨٩٢) .

كان القصبحى - رغم طبيعته الانعزالية - من رواد مقهى البوسفور حيث كان يغنى سيد درويش فى بداية مشواره الفنى فى القاهرة والتقى به القصبجى وتعرف عليه، وتوطدت العلاقة بينهما عام (١٩٢١) ، وكان سيد يغنى موالا يقول فيه :

لك خال على الخد يعجبنى أنا وغيرى
ولحظك اللى جرحنى ياما جرح غيرى

واللى انضنى بالجفا برضه مافيش غيرى
امتى تجود وتسمح لى بلثم الخال
افرح واقول ياهنايا فى بعاد غيرى

وعلى حد تعبير الناقد والمؤرخ الموسيقى محمود كامل فى كتابه "محمد القصبجى حياته وأعماله" والصادر عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام (١٩٧١). فإن "سيد درويش كان يستهل وصلته الغنائية عادة من مقال النكريز بهذا الموال، ثم يغنى بعده دوره المعروف:

ياللى قوامك يعجبنى... ليه بس ترضى لى صدودك

وحين طرق "القصبجى" من غناء درويش أخذ عوده وراح يرد عليه ببعض ألحانه الشجية التى انبهر درويش لها أيضا.

وكان القصبجى أحد رهبان الفن، رغم أنه أحاط حول حياته الشخصية سياجا كبيرا فقضى أوقاتا قليلة على المقاهى، إلا أنه - خاصة - فى مرحلة البدايات الفنية كان يرتاد بعض المقاهى لمقابلة الموسيقيين خاصة مقهى "التجارة" لدرجة أنه استأجر مسكنا متواضعا فى إحدى الحارات المتفرعة من شارع محمد على اسمها حارة "قلعة الكلاب" بإيجار شهرى قدره سبعون قرشا وترك منزل والده الذى كان يقيم فيه بشارع باب الوزير بقسم الدرب الأحمر، واستقل بحياته، حيث عمل مطربا فى الأفراح، وأحيانا كان يعطى دروسا خاصة فى العزف على العود والقانون والكمان، وكانت حصيلة هذه الدروس تتراوح بين جنيه وجنيهين شهريا هذا إذا كان

الدرس فى منزله هو ، أما إذا انتقل هو إلى بيت تلميذه ، فإن القيمة ترتفع إلى خمسة جنيهات شهريا .

وذات يوم والقصبجى يجلس على مقهى "التجارة" شاردا يفكر في تصاريف الحياة ، وهل يكمل طريق الفن الذى بدأه فى سن صغير ، وبين أن يرجع إلى حضن أبيه وإلى وظيفته كمدرس .

وبينما هو كذلك إذا به يلمح عازف الناى "عبده صالح" الذى عرض عليه أن يقدم للمطربة توحيدة وكانت من المطربات الشهيرات وتعمل بصالة "ألف ليلة وليلة" بميدان العتبة الخضراء والتى كان يعمل وراءها تخت كبير يضم عطية عمر عازف قانون ، وعازف الكمان أحمد غنيمة ، وعبده صالح ، عازف الناى ، فأسمعها القصبجى دور "الحب له فى الناس أحكام" فأعجبت به ، وغنته فى الصالة ، وكان هذا اللحن بداية الخير والشهرة للقصبجى الذى تهافتت على ألحانه كبرى شركات الأسطوانات وقتها ومنها "أوديون" و"بيضافون" و"جرامفون" والتى تعاقدت معه على تسجيل ألحانه بأصوات كبار المطربين والمطربات أمثال "نعيمة المصرية ، وأمين حسنين ، وسيد الصفطى ، ومحمد نور - والد عازف الناى الراحل محمود عفت ، وعلى عبد البارى ، ومحمد نديم ، وسكينة حسن ورتيبة أحمد" .

وكان أول ألحانه المسجلة هو دور "الحب له فى الناس أحكام" الذى غنته المطربة توحيدة قبل ذلك فى صالة "ألف ليلة وليلة" إلا أن الذى سجله هو المطرب زكى مراد "والد الفنانة المطربة ليلى مراد" .

وبعد أن تيسر حال القصبجي ماليا انتقل إلى المنزل الذى استأجره فى باب الخلق والمكون من ثلاثة طوابق.

وأراد أن يطور فى بنية اللحن فاتجه إلى "الطقاطيق" الخفيفة فكتب له الشيخ يونس القاضى طقطوقة:

"بعد العشا يحلى الهزار والفرفشة"

وطقطوقة:

"شال الحمام - حط الحمام"

وأراد الاثنان أن يسوقا للأغنية الجديدة فقاما بجولة فى المقاهى المتناثرة على جانبى شارع الأزبكية وعماد الدين مثل مقهى "إلياس والبسفور والبيجو والمونت كارلو" وكانت المطربات الشهيرات وقتها يعملن فى هذه المقاهى مثل "نعيمة المصرية وعزيزة فخرى وشمس قدرى ورتيبة أحمد وملك محمد" والتى أختارت لحن "بعد العشا" وأخذت تغنيه فى مقهى "المونت كارلو" وراجت الأغنية فطلبته شركة البيضافون وتعاقدت معه على تسجيلها هى وغيرها من الطقاطيق مقابل أجر قدره خمسة جنيهات للملحن، وجنيهان للمؤلف.

وكأن المقهى كان فاتحة السعادة والشهرة لصاحب "رق الحبيب" و"يا فايتنى وروحى معاك" و"يا قلبى أصبر على دى الأسية" و"امتى حتعرف امتى" و"صباح الخير ياللى معانا" و"نورك يا ست الكل"، وغيرها من مئات الألحان والطقاطيق بأصوات أم كلثوم وليلى مراد وإبراهيم حمودة وكارم محمود وهدى سلطان ونازك ومنيرة المهدية وأسمهان وغيرهم من كبار المطربين والمطربات.

وقبل ذلك ـ أيضا ـ بسنوات طويلة كان المقهى هو كلمة السر فى حياة المطرب الكبير عبده الحامولى (١٨٣٦ ـ ١٩٠١) والذى جاء من طنطا هاربا من والده الذى كان يتمنى أن يسلك ابنه طريق العلم أو يعمل معه فى تجارة البن، لكن نداء الفن كان أقوى، فبدأ الحامولى بالغناء في مقهى "عثمان أغا" بغابة الأشجار بحديقة الأزبكية، وبدأ فى تكوين تخت خاص له ضم مجموعة من أهم العازفين ومنهم "محمد العقاد الكبير ـ أشهر عازف آلة قانون ـ ومحمد الحمركشى على آلة الناى، وإبراهيم سهلون على الكمان، ومحمد كامل الرقاق ـ إيقاع"، ومن هذه المقهى الصغيرة ذاع صيت الحامولى حتى وصل إلى الخديو إسماعيل الذى طلب الاستماع إليه فأعجب به وألحقه بحاشيته، بل كان يصحبه فى رحلاته إلى الخارج خاصة فى زياراته للأستانة، وبذلك تهيأت للحامولى فرصة عظيمة لكى يطلع على التراث الموسيقى فى تركيا، وعند عودته بدأ يقدم مجموعة من الألحان التى مزج فيها بين الموسيقى الشرقية العربية والموسيقى التركية ومنها ألحانه الشهيرة "الله يصون دولة حسنك" و"كنت فين والحب فين" والذى شارك فى لحنه مع إسماعيل باشا حافظ والد الفنانة بهيجة حافظ.

مقهى بعرة
الكومبارس يغيّرون المشهد أحيانا

فى كل مدينة مقاه خاصة للحرفيين عليها يلتقون ويتعاقدون ويتفقون على أعمال جديدة يومية يحصلون من خلالها لقمة العيش البسيطة لهم ولأسرهم.

وتتعدد مقاهي المهنيين فى شوارع وميادين القاهرة فهناك مقهى "الحلاقين" فى شارع نجيب الريحانى الذى يقصده الحلاقون وعمال الكوافير من ربوع مصر بحثا عن فرص عمل جديدة، ويكتظ المقهى بالزبائن خاصة يوم الاثنين، وفى منطقة "المدبح" هناك مقهى خاص للجزارين، أما ميدان باب الشعرية: فيمتلئ بمقاهي الخبازين، وتمتلئ شوارع حى السيدة عائشة بمقاه لعمال المعمار والبنائين والسباكين وغيرهم، وهناك كذلك مقهى للطباخين بباب اللوق.

ومن أشهر هذه المقاهى مقهى "بعرة" والذى يقع فى شارع سليمان الحلبى وهو خاص بالكومبارس الذين يبحثون عن أدوار ثانوية أو الظهور ولو لمشهد واحد على شاشة السينما .

وقد افتتح المقهى عام (١٩٣٦) ، تحت اسم "نادى الكورسال" وكان فى البداية مكان لالتقاء الموظفين إلا أنه وبالتدريج بدأ يجذب إليه أهل الفن ومجانين الشهرة .

وأقدم رواد المقهى من الفنانين كان الفنان رشدى أباظة ، ويقال إنه هو الذى سمى المقهى باسم "بعرة" وهو الجمل الصغير نظرا لأن صاحب المقهى "الزناتى الصعيدى" كان ذا قامة طويلة وعريضة ، فكان رشدى أباظة حين يلتقى بأصدقائه ـ وكان من عشاق السهر يقول لهم "تعالوا نجلس على بعرة" .

وقد ارتاد المقهى بعد ذلك عدد كبير من الممثلين الذين أصبحوا نجوما بعد ذلك ، حيث كانوا يأتون إليه بحثا عن فرصة للظهور ومن هؤلاء عادل إمام وتوفيق الدقن وأحمد زكى وفريد شوقى ويوسف شعبان .

ومن القصص الطريفة التى يرويها رواد المقهى القدامى والذين تجاوز سنهم الآن السبعين عاما أن الفنان يوسف شعبان كان دائما الذهاب إلى "بعرة" بعد تخرجه من معهد الفنون المسرحية عام (١٩٦٠) وذات مرة وأثناء جلوسه على إحدى الطاولات مستغرقا فى شرب قهوته ، إذ بعمر الشريف يدخل من باب المقهى فيهرع إليه يوسف شعبان ليتعرف عليه ، وليخبره أنه تخرج للتو من معهد

الفنون المسرحية وأن أمنيته أن يمارس هوايته التى يحبها بالإضافة إلى كونه دارسا لفنون التمثيل ، فيخبره عمر الشريف بأنه أسس شركة للإنتاج السينمائى بالاشتراك مع الفنانة فاتن حمامة ، وستبدأ نشاطها بفيلم "لا تطفئ الشمس" من إخراج صلاح أبو سيف ، وأن هناك فرصة للعمل فى هذا الفيلم من خلال تمثيل شعبان لإحدى شخصياته .

إلا أن صلاح أبو سيف ـ بعد ذلك ـ لم يتحمس لإعطاء الدور ليوسف شعبان ، ومن يومها لم يعد يوسف إلى مقهى "بعرة" حيث اعتبر جلوسه عليه ذكرى سيئة ، رغم أن الفرصة ـ بعد ذلك قد جاءته بأدوار بطولة فى عشرات من الأفلام والمسلسلات ، وأصبح أحد نجوم سينما الستينيات .

وعلى كراسى المقهى كانت بدايات فنان الكوميديا خفيف الظل محمد هنيدى والذى كانت أمنيته فى البداية هى الظهور فى مشاهد قليلة لكن موهبته الفائقة جعلته من نجوم الصف الأول فى فن الإضحاك .

ولم يزل رواد المقهى يتذكرون ذلك الشاب الصغير فى السن والحجم الجسمانى الذى كان يأتى كل مساء فى انتظار الريجسير ، ربما يأتى له بدور صغير فى مسرحية أو فيلم أو مسلسل ، ويتحدثون عنه ـ بفرح ـ لأن أحدهم أصبح نجم شباك من الدرجة الأولى ، وهذا يجعل الكثيرين من رواد مقهى "بعرة" فى حالة من الحلم والأمل والمشى وراء جنون الفن .

ورغم الدور الذى يقوم به المقهى فى توريد الكومبارس إلى السينما والمسرح والتلفزيون ـ حيث يعتبر المقر الرئيسى لهم إلا أنه صغير من حيث المساحة لا يوجد إلى عدد من الطاولات المتلاصقة، وتشتهر بلعب "الطاولة" وتدخين الشيشة وتقديم المشروبات العادية كالشاى والقهوة والعصائر.

والغريب أن أجر الكومبارس يعد من الأجور الضعيفة جدا فبعضهم لا يزيد أجره عن (٢٠) جنيها إلا أنهم يتمسكون بهذه المهنة التى لا تكاد "تغنى أو تسمن من جوع"، ويتم عمل هؤلاء وتسكينهم فى الأدوار حسب ما يراه ويوزعه الريجستير ولكن كيف يتم ذلك، يؤكد وديع بباوى ـ ريجستير ـ أنه يتم إصدار بطاقات شخصية للكومبارس من النوعين تتضمن المعلومات والعناوين والمواصفات لاختيارهم وعرضهم على المخرجين مقابل أتعاب أو نسبة من الأجر تصل إلى ١٠٪، ويتم إجراء المقابلات معهم فى مقهى "بعرة" أو فى مطعم "خريستو" فى طريق الأهرامات حيث يوجد أيضا عدد من الكومبارس.

ويشير سيد الزناتى ـ ابن مؤسس المقهى ـ أن "المقهى يدعم مهنة الكومبارس وسرعة توفيرهم للمخرجين والمنتجين حيث إن، هاتف المقهى يعد هاتف النجدة لهم فيتم اختيار الكومبارس وتجهيز مكياجه ليكون جاهزا للدور داخل المقهى أيضا".

وتأتى أهمية مقهى "بعرة" من كونه يحافظ على تقاليد فنية قديمة فى صناعة العمل الفنى وإن كانت هامشية وتغيرت بفعل

الزمن، لكن وأنت جالس فيها تحس برائحة الزمن القديم وأفلام الأبيض والأسود وكأن عجلة الوقت لم تدر وكأن آلة الزمن قد توقفت.

رغم أن حركة الشارع بالخارج تؤكد عكس ذلك إلا أن الجالسين على الرصيف المقابل فى انتظار حلم الشهرة وألق الظهور ولو للحظة واحدة على الشاشة يجعل عيونهم المرهقة من فعل الزمن والبطالة والغلاء والتطلع إلى سماء بعيدة، يجعلها فى حالة اندهاش دائم وانتظار مقيم.

مقاهى أم كلثوم
العالم على جناح أغنية

فى شارع "أحمد عرابى" بوسط القاهرة يقع مقهى "أم كلثوم" والذى أخذ شهرة واسعة خلال النصف الثانى من القرن الماضى، والناظر إليه لأول وهلة يلمح طابعا مختلفا مميزا هذا المقهى عن سائر المقاهى، لأنه أشبه بالمتحف الذى يضم مقتنيات كوكب الشرق "أم كلثوم" والتى جُمعت فى صندوق زجاجى أنيق ومنها "مناديلها التى كانت تمسكها فى يدها وهى على المسرح وكذلك نظاراتها الشخصية.. وغيرها"، كما يتوسط المقهى تمثال صغير عبارة عن رأس منحوت لأم كلثوم صنع من الجرانيت، بالإضافة إلى صور مختلفة تزين حوائط المقهى لمراحل متنوعة من حياة كوكب الشرق، ومنها صورها مع رؤساء وزعماء الدول العربية والأجنبية

وكبار الفنانين أمثال محمد عبد الوهاب، وفريد الأطرش وعبدالحليم حافظ وفيرزو ومحمد الموجي وبليغ حمدى وسيد مكاوى محمد القصبجي، ورياض السنباطي، وصور أخرى لها مع فرقتها الموسيقية، بالإضافة إلى صور متفرقة لبيرم التونسي وسيد درويش وغيرهم من رواد الفن والأدب.

وقد سمي المقهى بهذا الاسم بناء على طلب المطربة الراحلة أواخر الأربعينيات من القرن الماضي.

وأهم ما يميز المقهى التسجيلات النادرة لأم كلثوم بالإضافة إلى أغانيها الشهيرة التى تملأ أجواء المكان، كما يختلف عن باقى المقاهي بأنه لا يقدم الطاولة أو الدومينو، وإن كان يقدم الطلبات المعتادة كالشاى والقهوة وعصائر الليمون والفراولة وغيرها.

وكانت أم كلثوم قد اعتادت أن تجلس عليه بعد أن تنتهى من بروفاتها وحفلاتها بمسارح القاهرة لتتناول قهوتها وكان يصاحبنا ـ فى فترة الستينيات ـ الملحن كمال الطويل.

ويحكى محمد عبدالخالق (٧٠) عاما، وهو أحد أقدم رواد المقهى أن هذا المقهى كان فى الأصل ملك لتاجر أجنبى قبل أن تنتقل ملكيته لأصحابه الحاليين.

وعلى بعد (٥٠٠) متر من هذا المقهى يوجد مقهى آخر بشارع سراى الأزبكية تعلوه لوحة كبيرة مكتوب عليها "مقهى سيدة الغناء العربى" تزين جدرانه صورة عملاقة لكوكب الشرق فى مواقف مختلفة تسجل لقاءاتها مع الرئيس جمال عبدالناصر والعندليب

عبدالحليم حافظ. أما طاولات المقهى فذات طبيعة متميزة فقد صنعت من النحاس وزينت بنقوش بارزة لصدورها وهى تمسك بمنديلها الشهير.

ويمتلك المقهى صفوت لوقا - الذى يؤكد أنه يتردد عليه مئات المصريين من عشاق أم كلثوم ليستمتعوا بأغانيها التى لا تتوقف.

ولا يقتصر الاهتمام بكوكب الشرق فى مصر وحدها فقد أطلق اسمها على عدد كبير من المقاهى فى العالم العربى، لعل أشهرها المقهى الذى يحمل اسمها فى بغداد والذى يقع فى مدخل شارع الرشيد وكالعادة - أيضا - يقبع المكان بصوتها القديس من الساعة الثامنة صباحا حتى الحادية عشر مساء.

وقد تأسس المقهى عام (١٩٦٨)، وقد أرست إدارة المقهى منهجا مغايرا فى طريقة عرض الأغانى، حيث تعرض الأغانئ التى تلائم كل فترة من فترات اليوم، فهناك الأغانى الصالحة لفترة الصباح وأخرى لفترة الظهيرة وثالثة لفترة المساء، وهو ما يجعل المقهى له مذاق خاص عن باقى مقاهى المثقفين فى الطرق مثل ""مقهى عزاوى وياسين عارف أغان وحسن عجمى والبرلمان".

وقد أسس المقهى السيد عبد المعين أحمد الموصلى والذى كان مولعا ومحبا لأغانى كوكب الشرق، ويحتوى المقهى على (٥٥) دكة "كرسى كبير" تكفى لجلوس (١٦٥) شخصا، وتزين جدرانه ما يقرب من (٨٠) صورة لأم كلثوم بعضها يجمعها مع مؤسس المقهى، والبعض الآخر مع كبار الشخصيات العربية السياسية والفنية.

ويرتاد المقهى أساتذة الفكر والأدب والفن الذين يبحثون عن النادر من أسطوانات وشرائط "أم كلثوم" والتي يحتفظ بها صاحب المقهى الذى قام بجولات عديدة فى الدول العربية بحثا عنها، فكون مكتبة تضم أكثر من ألف شريط غنائى.

ويجذب المقهى - الذى مازال يحافظ - على شكله التراثى الفنانين والشعراء والفنانين التشكيليين، بالإضافة إلى الشرائح المختلفة من الأكراد والعرب والأتراك وغيرهم.

وفى ظل التحولات العاصفة التى أخذت العراق إلى مستقبل مجهول، وحولت حضارته إلى خرائب وأطلال، تراجعت الأشياء الجميلة لتسكن فى الذاكرة، ومنها ذلك المقهى العريق الذى شهد أياما رائعة من الفن والإبداع.

وها هو الكاتب المسرحى الشهير "جواد الأسدى" الذى عاد إلى بغداد بعد (٢٨) عاما من المنفى ليجلس على رصيف المقهى، فوجد أن كل شيء قد تغير فكتب فى جريدة "الحياة عن هذه اللحظة قائلا:

"ذبحتنى تلك الوجوه فى مقهى أم كلثوم بعد سنوات طويلة من الموت فى المنفى، الوجوه ملفحة بالقهر الملابس ممزقة، النفوس مستحقة، لا أمل فى العيون ولا شهية فى الشراب، حركتهم بطيئة يرشفون الشاى وكأنه دواؤهم المقدس يجلسون مسمرين فى الفراغ ينتظرون الفرج.

أم كلثوم تصدح - يا ظالمنى - وأنا أراقب الوجوه يا إلهى أقسم لم تكن وجوه العراقيين على هذه الدرجة من المرارة والإحباط لم يكونوا

رثين إلى هذا المستوى من الرثاثة، من الذى أوقعنا فى مغطس القهر والظلم، صدام حسين الذى صنع لنا كل هؤلاء الرجال القتلة. أية شهوة كانت تسكنه وهو يرى شعبا كاملا يموت تحت ضربات جزاريه وحماقته وبربريته".

***

أما العاصمة الفرنسية "باريس" فقد تم فيها افتتاح (١٤٠) مقهى خلال العشرين عاما الماضية تقدم النرجيلة العربية، ويعد من أشهرها "مقهى أم كلثوم" والذى افتتح عام (١٩٩٦) ويملكه سمير خومارو ويقع فى الدائرة الخامسة فى باريس، ويقول صاحب المقهى - وهو عراقى الأصل محب للفن والسينما بوجه خاص وكان يحلم فى شبابه أن يصبح مخرجا سينمائيا - أنه لم يتوقع إطلاقا أن يشير المقهى رجال أعمال يفتحون مقاهى منافسة، وأنه كان يقصد أن يصبح مقهاه مكانا لتلاقى الأصدقاء فتحول إلى علامة تجارية، فأصحاب هذه المقاهى الجديدة كانوا من زبائنه فى مقهى "أم كلثوم" وقد درس خومارو السينما فى بغداد ثم جاء إلى باريس لدراسة الإخراج التلفزيونى عام (١٩٧٦)، ثم عاد إلى بغداد ليعمل فى التمثيل وليخرج عدد من المسلسلات والبرامج الثقافية فى التليفزيون العراقى، لكنه عاد مرة أخرى إلى باريس عام (١٩٧٩) ليلتحق بجامعة السربون لينال شهادة الدكتوراه، بعد ذلك قام بإخراج عدد من الأفلام الوثائقية من خلال عمله بمكتب "الإنتاج السينمائى" التابع لليونسكو، بعد ذلك انتقل إلى معهد العالم

العربى للعمل مسئولا عن الإنتاج السينمائى المشترك حتى تم إعفاؤه من مهمته بعد حرب الخليج الأولى عام (١٩٩١) لأسباب اقتصادية، وقد جاءته فكرة إقامة مقهى عربى بوسط باريس، بعد زيارته للقاهرة وجلوسه على المقاهى الشعبية فى حى الحسين وحى السيدة زينب حيث يقول: "فكرت فى فتح مقهى ينقل إلى الفرنسيين سحر الشرق العربى".

وقد اختار سمير خومارو مكان المقهى بالقرب من الحى اللاتينى وجامعة السربون وهو عبارة عن طابق أرضى وقبو، زينت جدرانه بالنقوش والرسوم العربية وقد جذب المقهى عددا كبيرا من الرسامين والصحفيين والموسيقيين وطلاب الجامعات من النوعين فأكثر من (٥٠٪) من زبائنه من السيدات.

ويعلق خومارو على جدران مقهاه بعض الملصقات الثقافية ومنها قصيدة للشاعر الفرنسي الفونس دى لامارتين كتبها عن النرجيلة بعد زيارة له إلى لبنان وسوريا فى القرن التاسع عشر، تغنى فيها بحسناء من حلب تدخن النرجيلة وكذلك يعلق ملصقا يتضمن تاريخ ونشأة وتطور النرجيلة.

أما فى مدينة "برلين" الألمانية وتحديدًا فى شارع "الزونين آليه" وهو أحد الشوارع المشهورة بها يقع مقهى أم كلثوم الذى يعتبر أهم مقهى عربى فى برلين، فقد افتتح عام (١٩٩٨) ، ومعظم رواده من العرب الذين يفدون إلى المدينة إما للعمل أو الدراسة أو الإقامة.

ويقدم المقهى المشروبات العربية كالشاى والقهوة وحمص الشام

والـزنجبيل واليـنسون بـالإضـافـة إلى الـشـيـشـة ولا يـقـدم المـقـهى المشروبات الكحولية.

ويجاور المقهى مطعم "السنابل" الذى يقدم وجبات وسندوتشات "الفلافل" بـالإضـافة إلى الأكلات الألمانية ويمتلكه "محمد كلّم: والذى اختار هو وزوجته الألمانية أن يكون المطعم حاملا فى جدرانه وأساسه المزج بين الزخارف العربية والعمارة الألمانية الحديثة.

مقهى المختلط
ومسرح القهوة

فى عام (١٩٦٩) ظهرت تجربة فريدة وجديدة هى "مسرح القهوة" على يد المؤلف المسرحى ناجى جورج، والذى اختار لعرضه "مقهى المختلط" بالعتبة بعد أن اتفق مع صاحبيها رأفت خليل الذى كان يعمل مفتشا للتموين وخليل خليل المحاسب بشركة النصر لصناعة السيارات، اللذين وافقا على الفور بدون إيجار بل إن خليل قام بدور مدير خشبة المسرح فى العرض الثانى من عروض الفرقة، وظل ملازما لها حتى فى عروضها التى أقيمت فى أماكن أخرى. وقد تولى الفنان سمير سليمان أحد مخرجى الثقافة الجماهيرية - وقتها - عملية الإخراج لكنه ترك الفرقة لظروف خاصة، ثم أكمل المشوار من بعده المخرج التلفزيونى اللامع محمد فاضل.

وقد قدمت الفرقة عرضين الأول مسرحية "قهوة المعلم أبو الهول" في يونيو (١٩٧٠) ، والثاني مسرحية "إني اعترض" سنة (١٩٧١) ، وقد سجل التليفزيون المسرحية الأولى.. وعرضها.. كما قامت برامج ثقافية في الإذاعة والتليفزيون باستضافة الفرقة سواء على الشاشة أو في الإذاعة وقد تكلف إنتاج العرض الأول عشرين جنيها تم جمعها من أعضاء الفرقة وشارك في بطولتها كل من وفيق فهمي، وفاروق فلوكس وعزيزة راشد وسيد عبد الكريم ومحيي الدين عبد المحسين وقاسم شحاتة ويسرى ناصر ومجدى وهبة ومجدى يوسف وإسماعيل ذهنى وسعيد الدسوقي.

وتدور أحداثها حول المعلم "أبو الهول" صاحب مقهى يهتم بالأحداث السياسية والاجتماعية من خلال أحاديث الزبائن الذين يشاركهم الأحاديث لكنه عنيد أمام مصلحته، فكل ما يهمه هو سلامة أمواله التي يقاتل من أجلها، فهو نموذج للإنسان الجشع المحب لذاته، نموذج رأسمالي صغير يريد أن ينجو بمصلحته ونفسه دون النظر إلى مصلحة الآخرين، ويتجلى ذلك واضحا في حواره مع أحد الزبائن المتحمسين للحرب ضد العدوان حيث يقول له في جملة حوارية:

"شوف يا أستاذ.. لا مؤاخذه في دى الكلمة.. كل واحد في الحاجات دى يشوف نفسه. أحبك.. أحبك بس مش أكتر من نفسي.. ولا غلط الكلام ده يا عبدالسميع أفندى".

والنموذج الثاني الذى تقدمه المسرحية هو "فهيم" شخصية المثقف.. الشاب المهموم بقضايا مجتمعه، وإن كانت لغته الخاصة

ذات الطبيعة المتعالية المتثاقفة جعلته غير متصل عمليا بواقعه، فهو شخصية خيالية في ظل واقع ملتبس - خاصة إذ نظرنا إلى اللحظة التاريخية التي كتب فيها النص - وهي السنوات التالية لهزيمة يونيو (١٩٦٧) التي أحدثت هزة عنيفة في بنية المجتمع المصري وأوجدت حاجزا نفسيا وانكسارا عميقا، ربما مازالت آثاره باقية حتى الآن.

وهناك نموذج ثالث طرحته المسرحية وهو شخصية "عبدالسميع" الموظف المصري البسيط.. الذي فقد ابنيه في حرب (١٩٤٨).. فاستغرقته الأزمة واستسلم لها.. يعيش مستغرقا الماضي وكأن الماضي مجرد ديكور يحيط به.

والنموذج الرابع هو "زعرب" عامل من عمال المناجم.. كان في سيناء عندما اندلعت الحرب.. فقد أصابعه أثناء الانسحاب عندما شارك العمال من زملائه في تجير المنجم.

والنموذج الخامس، وهو نموذج آخر للانكسار يتمثل في شابين تخرجا حديثا من الجامعة.. يحلمان بالهجرة لأمريكا.. ولا يشغلان أنفسهما بما يدور من حولهما، بل كل ما يشغلهما ويدور في ذهنهما هو حلم الثراء والهجرة والمستقبل المتخيل.

وهناك نموذج آخر يمثله "عوض" ماسح الأحذية.. الذي نزح من الصعيد بحثا عن لقمة عيش، أما النموذج الأكثر دلالة على الحالة فهو "الأخرس" أكثر زبائن المقهى مداومة على الحضور.. والذي تعتصره الأزمة من داخله.. لكن تعوزه إمكانية التعبير.

وتبدأ المسرحية بمشهد لغارة تتم خارج المقهى فيأمر المعلم "أبو الهول" بغلق الباب .. في حين أن هناك فتاة "بائعة يانصيب" بالخارج تتعرض للخطر فيطالب رواد المقهى بفتح الباب كي تدخل وتكون في مأمن لكنه يرفض خوفا على مقهاه، وبعد أن تنتهي الغارة الحربية يفتح الباب فتدخل الفتاة مجروحة والدم ينزف منها وتنظر إلى الجميع نظرة عتاب يملؤها الألم، مما يجعل غالبيتهم يقوم ليواجه الفلول المتبقية من جنود العدو، بينما يظل في المقهى النماذج السلبية كصاحب المقهى والشابين المتعلمين والشاب المتثاقف.

وقد استخدم محمد فاضل "القهوة" كفضاء مسرحي للعرض مع إضافات سينوغرافية قليلة للغاية، حيث اعتمد على تقنيات المسرح الفقير عند "جروتوفسكي" وأذاب الحواجز بين المتفرج وممثلي العرض مما جعل الجميع فى حالة شعورية واحدة بعد أن اكتسبوا حالة التمسرح، بعد أن تحول المكان كله إلى مسرح، ومن هنا كانت أهمية مسرح القهوة أنه كسر الحاجز الوهمي - بالفعل - بين النص والممثل وبين الجمهور، ربما لأول مرة فى تاريخ المسرح المصرى الحديث.

فحتى التجارب التي شاكست فى هذا الجانب وحاولت أن تؤسس لمسرح مصرى جديد كمقدمة يوسف إدريس للفرافير والتى حملت عنوانا مستقبليا دالا وهو "نحو مسرح عربى جديد" إلا أننا وجدنا الفرافير كعرض تجريبى من الدرجة الأولى جاء أسيرا لتقاليد المسرح، حيث عرض فى مسرح "علبة إيطالية" ومورست فيه طقوس

العملية المسرحية بداية من قطع التذكرة حتى طرق العرض من سينوغرافيا وإضاءة وخشبة مسرح وتقطيع المسرحية إلى مشاهد وفصول.

في حين أن عرض "قهوة أبو الهول" لم يستغرق ثلاثة أرباع الساعة، وجاء كمشهد واحد متصل تدور أحداثه في أحد مقاهي السويس أو الإسماعيلية في الأيام التي أعقبت هزيمة يونيو (١٩٦٧)، ورغم نمطية الشخصيات التي قدمها العرض إلا أنه جرأة الفكرة وبساطة التناول أكسب التجربة مذاقا خاصا.

وهذا ما تلمحه من رسالة أرسلها المفكر الكبير محمود أمين العالم إلى الكاتب ناجي جورج ونشرها بعد ذلك على غلاف الكتاب الذي ضم مسرحياته هذه: حيث يقول له في هذه الرسالة: "ولأنك تضع يدك على الجرح، ولأنك تكشف الستار عن المزورين والمغرورين والمستغلين، ولأنك تفضح الزيف ولأنك ترفض أن تكتفي بإشباع العواطف وإرضاء الأفكار، وإنما تحرص على أن تشير إلى الطريق.. ستجد دائما هذا الاتهام المعاق: هذا أدب مباشر، هادف، زاعق صارخ!! قل لهم نعم.. أنا صوت صارخ في هذه البرية المتردية فاتبعوني بل تجاوزوا خطواتي إن كنتم صادقين مخلصين.. تمنياتي أيها العزيز ناجي بمواصلة الطريق الصعب.. طريق الإبداع المسئول.. محمود أمين العالم".

أما المسرحية الثانية التي قدمتها الفرقة فهي مسرحية "إني اعترض" والتي قدمت بمقهى "المختلط" في موسم (١٩٧٦) من

إخراج ليلى سعد، وقام ببطولتها الفنان عبد الرحمن أبو زهرة وسعيد الصالح وعبدالعزيز عيسى وخالد حمزة وناهد نائلة، ونتيجة لظروف العرض تناوب عدد من الممثلين على باقى الأدوار المختلفة فقد شارك فى بعض ليالى هذا العرض فائق عزب، ممثل المسرح القومى وفنان مسرح الطليعة ناجى كامل، وكانت المسرحية قد تعرضت للرقابة والمصادرة عند عرضها لأول مرة عام (١٩٧١)، ثم تم التصريح لها بعد خمس سنوات من المعاناة، وقد لعب الفنان الكبير عبدالرحمن أبو زهرة دورا كبيرا فى تحفيز باقى أعضاء الفرقة على الاستمرار ومواصلة ما بدأوه.

وعن هذه الأيام العصيبة التى واجهت فرقة "مسرح القهوة" يقول ناجى جورج فى مقدمته لمسرحية "إنى أعترض" : "اضطررنا نتيجة لتخلى الكثيرين عن العرض أثناء تقديمه وانسحابهم إلى الاستعانة بممثلين تطوعوا للتمثيل لاستمرار العرض، إن المقارنة البسيطة بين الفريق الأول الذى أدى مسرحية قهوة المعلم أبو الهول والفريق الذى أدى مسرحية إنى أعترض تكشف عن طبيعة التغيير الذى جرى فى الحياة الفنية.. بعد تغلب البترودراما على المناخ الفنى، تخلى الكثيرون عن العرض أثناء تقديمه وانسحب البعض أثناء ليالى العرض.. وقد تكلف إنتاج العرض حوالى مائة جنيه اكتتبنا فيها لم يسجل التليفزيون العرض.. لكننا لا ننكر أنه قوبل بحفاوة نقدية وجماهيرية، وكانت أيام العرض ٤٠ مسرحية"

وقد استطاع ناجى جورج أن يطوع نصه للمكان المقهى كفضاء مسرحى، فالأحداث المكتوبة تدور فى المقهى، فالمكان هو حيز النص وبؤرته، وأبطاله هم رواد المقهى، والحوار لا ينفصل عن الحوار العادى بين الزبائن، فمن التفاصيل المحكية يتولد الحوار المسرحى.

وفكرة مسرح القهوة قريبة من فكرة مسرح "الشارع" والتى ظهرت فى منتصف القرن العشرين فى أمريكا وفرنسا على وجه التحديد وكانت مرتبطة بحركة اليسار، وهى "الحركة التى نما هذا المسرح من داخلها والتى ظلت تؤثر فيه دائما أو كما يقول "هنرى لنيسك" فى كتابه "مسرح الشارع فى أمريكا" : "لقد توصلت فرق كثيرة من مسرح الشارع على قناعة فكرية مؤداها أن هناك أسبابا موضوعية وتاريخية واجتماعية لإحساسهم بالاغتراب وأصبحوا يلمسون الحاجة إلى مسرح يملك أسباب التغلب على الاغتراب الاجتماعى من خلال الممارسة الاجتماعية الجماعية والنشاط السياسى"، وهذا ما فعله ناجى جورج ورفاقه من محبى المسرح.

مقهى استرا
ومسرح الفنان

عالم خاص من الفن والثقافة أضاء ليالي مقهى "استبرا" فى منتصف الستينيات من القرن العشرين، امتزجت فيه روح الشعر بالغناء والموسيقى والمسرح وفن الحكى والواو والزجل وفن القافية والنكت والإنشاد الدينى وغيرها من الفنون التلقائية التى كانت تأتى وليدة اللحظة ومعبرة عن روح فنية وأدبية وثابة، استمر نشاطها لأكثر من عشر سنوات شارك فى إثراء هذه التجربة عدد كبير من الفنانين أمثال عبدالرحمن عرنوس ويونس شلبى ومحمد نوح وأحمد الشابورى وسامح الصريطى ويوسف عيد وحسن السبكى وإبراهيم رضوان والشاعر الراحل عصام عبد الله ولطفى لبيب ومحمود الجندى بالإضافة إلى الماكيير "ميشو" الذى كان يجلس على المقهى يوميا ليحكى النوادر الخاصة والذكريات التى عاصرها مع كبار نجوم السينما المصرية والعربية.

بالإضافة إلى الفقرة التى كان يقدمها الشاعر عبدالرحمن الأبنودى بإلقائه المتميز ولكنته الصعيدية

ومن أشهر الشخصيات التى شجعت على استمرار الأمسيات الثقافية شخصية "محمود حجازى" وهو أحد محبى الثقافة وقد ورث فيلا عن أهله بشارع منصور فى تقاطع شارع مجلس الشعب، وقد هدمت الآن ـ وكان الرجل ـ على حد تعبير عبدالرحمن عرنوس ـ يغدق على جوعى القراءة والثقافة من أبناء المحافظات الذى كانوا يحضرون أمسية الخميس فتارة يأخذهم يقلبون فى مكتبته الضخمة التى وضعها فى مبنى صغير فى حديقة فيلته، يدعى السلاملك ليطلع من يريد على أمهات الكتب فيها، ثم يذهب معهم فى اليوم التالى إلى مكتبة "خربوش" التراثية فى شارع بورسعيد ويشترى لغير القادرين ما اختاره من كتب لم يقدر أن يدفع ثمنها، بشرط أن يجهزوا منها ما يفيد الأمسية فى سهرة الخميس التالى، وهكذا كان الحال وهج ثقافى عند البعض، وترفيه لفنانين يعودون بعد سهراتهم أو أعمالهم المسائية".

وهذه الحال التى يشيرإليها عرنوس هى نموذج واضح على العلاقات الإنسانية التى كانت تسود بين رواد المقهى فى ذلك الزمن الجميل، حيث النقاشات الدائمة حول آخر الإصدارات من الأعمال الشعرية والروائية والفكرية والتى تعقد لها الندوات والأمسيات، فيتحول المقهى إلى صالون ثقافى يجمع بين تيارات مختلفة فكريا وثقافيا واجتماعيا يجمعها حب الثقافة والإطلاع واحترام الآخر حتى إن اتسعت رقعة الخلاف الفكرى والسياسى.

ويؤكد عرنوس أن دعوته لإقامة مثل هذا النشاط الثقافى ما بين مقاهى "بلودان واسترا وعلى بابا" قوبلت بالانتقاد من قبل البعض والاستهجان من البعض الآخر ، فيقول فى شهادة عن التجربة نشرت فى جريدة "مسرحنا" فى (١٦) يونيه (٢٠٠٨) : "وكنت صاحب فكرة هذا النشاط فى المقاهى الذى تحمل فى سبيل تحقيق تلك الفكرة الكثير من جهلاء المسرح الحاقدين والمستنقدين عشاق الهجوم على محاولات التجديد والبحث عن أماكن جديدة للتنفيس عما بداخلهم، وعما بداخل بعض المواهب التى تحاول البحث عن متنفس يزجى التراكم المعرفى عن محاولات البحث عن أماكن جديدة للعروض.

ولم يكن يدرى الحاقدون من جهلاء المسرح عن أخبار مقاهى العروض فى باريس مثل مقهى الأبسيدول فى عاصمة النور، ومقهى لاماما فى أمريكا، وتجارب خارج برودواى، والمسرح الحر فى أمريكا.. التى كان يشجعها عشاق المسرح هناك. كان هؤلاء المستنقدون يعتبرون من يخرج عن خط المسرح التقليدى القائم خروجا عن التقاليد البالية، كما يعتبرون من يدعون إلى التغيير أنه أصيب بالجنون" .

ودفاع عرنوس عن تجربته المهمة ليس من فراغ فقد حققت هذه التجربة نجاحا ملحوظا فى تلك الفترة، خاصة فى التقنية المسرحية، فقد كانت الفترة اللاحقة لهزيمة يونيو (١٩٦٧) فترة انكسار شديد على المستوى السياسى والاجتماعى ومن ثم الثقافى، ومن هنا

ظهرت محاولات لإعادة الوعى الثقافى للخروج من مأزق الهزيمة والبحث عن خطط بديلة للمستقبل، ومن هذا الشتات ظهرت جماعات ثقافية وفكرية استمت بطابع الجماعة فى الأداء، وفى المسرح بدأ التفكير فى العودة إلى الأشكال المسرحية الأقرب إلى التماس من الجمهور مثل مسرح الشارع، ومسرح الجرن، ومسرح المقهى وقد اتسمت تجربة "مسرح الفنان" بمقهى "استرا" إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى اجتذبت عددا كبيرا من الفنانين، فكان الملحن محمد نوح والفنان الراحل أحمد الشابورى يشدان من أزر المواهب الجديدة حيث كان نوح بعد أن ينتهى من أدائه فى مسرحية "مدد.. مدد شدى حيلك يا بلد" تأليف الشاعر إبراهيم رضوان يأتى إلى المقهى ليستمع إلى المواهب الجديدة ويشجعها ثم يردد ألحانه على رواد المقهى، وكان من بينهم الصحفى محمد نجيب وفنان الكاريكاتير الراحل رخا الذى كان يدخل فى مباريات الشطرنج مع المحامى سعد العمروسى، وكان الكاتب الراحل عبد الوهاب مطاوع يسجل جلسات المقهى فى موضوعاته الصحفية بجريدة "الأهرام".

أما فن القافية والمونولوج فقد وجد أرضا خصبة وحضورا جماهيريا داخل المقهى خاصة مع الطريقة الممتعة التى كان يقدم بها سلطان الفار فقراته الأسبوعية التى كانت ـ عادة ـ فى منتصف السهرة قبل الاستراحة وتناول الشاى، كما كان لإلقاء فن الواو الصعيدى والبحيرى مكان فى تلك الأمسيات الرائعة، ثم تجئ

الفقرة المخصصة للشاعر عبدالرحمن الأبنودى بأدائه الفريد الذى يحمل نكهة شعبية خاصة وبما تتضمنه قائده من موضوعات تهتم بقضايا الناس وتصورها فى جمل شعرية صادقة، وكانت هذه الفقرة من أكثر الفقرات جماهيرية حيث كان يمتلئ المقهى بالرواد.

أما المرحلة الثانية فتحول النشاط الثقافى فى المقهى إلى ما يشبه مسرح المنوعات حيث كان يشرف عليه فى تلك المرحلة د. صلاح الراوى والفنان عادل درويش، وكان الشاعر الراحل نجيب سرور يجئ إلى أمسيات "استرا" ليلقى بعض أشعاره ومقاطع من مسرحياته الشهرية مثل "منين أجيب ناس" و"ياسين وبهية" وغيرها.

وكان عبد الرحمن عرنوس فى تلك الفترة قد نقل نشاطه الفنى إلى مقهى "بلودوان" بالعباسية، إلا أنه على حد تعبيره فوجئ بمقال فى مجلة "الكواكب" للمرحوم حسين عثمان بتاريخ (١٩٧٧/١/١٨) تحت عنوان "الصالون الثقافى للفنان" كتب يقول فيه: "يتحدث الوسط الفنى عن تصرف غريب يجرى فى مقهى يقع فى ميدان التحرير، وهذا المقهى يقيم مساء كل خميس عرضا لمنوعات التمثيل، ومن بين فقرات هذا المقهى مطرب قديم يغنى أغانى لا تمت للفن بصلة، فضلا عن أنها تدخل تحت قائمة الأغانى التى تخدش الذوق العام أو الآداب العامة فإنه يغنى أغنية مطلعها كل الحمام اتنين اتنين.. ويمنعنى الحياء من تكملة الأغنية، وقد كان أول ما خطر لى أن أبحث عن الفنان عبد الرحمن عرنوس الذى ابتكر فكرة العروض المسرحية فى المقاهى، وتحويل المقاهى إلى

أندية ثقافية لنشر الوعى المسرحى والتذوق الفنى بين الجمهور، واختار لفكرته اسم "الصالون الثقافى لمسرح الفنان" وتحمس الكثيرون لهذه الفكرة النابعة من قلب صادق يخفق بحب الفن فلما ظهر هذا المطرب القديم ليغنى كلاما لا يعبر عن علاقة المقهى بالفن بحثت عن عرنوس فاكتشفت أنه ترك المقهى بعدما خرج عن الهدف الذى كان يستهدفه عبدالرحمن عرنوس وانتقل على مكان جديد فى ميدان العباسية هو كافتيريا بلودان وأصبحت ندواته الفنية التى يعقدها كل أسبوع تؤمها شخصيات بارزة فى الشعر والأدب والفن والمجتمع.. ولا يكتفى بالعروض الفنية بل يخصص مكانا لعرض أعمال الفنانين التشكيليين.

وقد عاد عرنوس إلى "استرا" ليستعيد نشاطه الفنى مرة أخرى فغلب على هذه المرحلة الاهتمام بالمسرح كجزء من برنامج الأمسية وفقرة من فقراتها التى زادت عن المرحلة الأولى، فكانت هناك فقرة عن الفن التشكيلى كان يقدمها د. سمير سعد الدين - أستاذ التصوير - وكانت هذه الفقرة تحت عنوان "عيون الكاميرا" يتحدث فيها عن التراث المعمارى المصرى بما يتضمنه من آثار إسلامية كالمساجد والتكايا والمشربيات.

آخر الشارع على مقهى القللى

على مقهى "القللى" بمدينة الفيوم، قدمت فرقة نادى المسرح بقصر ثقافة الفيوم العرض المسرحى "آخر الشارع" تأليف مؤمن عبده وإخراج عادل حسان وتمثيل مصطفى الدوكى وأشعار أحمد زيدان والعرض عبارة عن مونودراما خفيفة تجسد الصراع الإنسانى في ظل التحولات الاجتماعية، خاصة شخصية الفنان الذى يحاول أن تؤكد القيمة العليا للفن رغم سطوة التسطيح عبر المستويات المختلفة للحياة اجتماعيا وثقافيا وسياسيا.

وينتمى العرض إلى ما يمكن أن أسميه بـ"مسرح المفارقة" الذى يطرح القيمة فى إطار تراجيدى، ثم يعبر عنه فى مشهد آخر فى إطار كوميدى، وقد استخدم المخرج فى ذلك تكنيك "الأراجوز"، وملابس "البلياتشو" لأبطال العرض مستخدما فى الخلفية إطارا موسيقيا هو

أغنية "ودارت الأيام" لكوكب الشرق أم كلثوم وإن كنت أرى هذه الخلفية الموسيقية فقد اقتحمت على العرض وأخذت من فنياته. بقى أن نشير إلى أن العرض من تأليف الراحل مؤمن عبده وهو من شهداء حريق مسرح بنى سويف وهو صاحب تجربة كانت تبشر بالكثير من خلال أعماله "طعم الغروب" و"حزن المطر" و"طرح الغياب" و"توب الفرح" و"أثناء الليل" و"شيكابيكا".

وكنت في طريقي لحضور العرض قد قرأت له مسرحية من آخر ما كتب تحت عنوان "ميدالية" تنتمى إلى مسرح العبث، ومع ذلك فهى مسكونة أيضا بروح الحلم فبطلتها بطلة رياضية فى رفع الأثقال تمثل مصر فى الأوليمبياد ووصلت إلى المرحلة النهائية من التصفيات، وانتظر الجماهير أن تحصل ابنة مصر على الميدالية الذهبية وبدأ الجميع يتوقع ويتساءل و البعض ترك أعماله والبعض الآخر عسكر على المقهى فى انتظار المباراة الأخيرة لكن فى النهائى خيبت هذه البطلة آمال الجماهير، وهكذا استقى مؤمن عبده من إحدى حوادث الواقع تجربة لنصه "ميدالية"، فضفره طريقة فانتازية، شاعرية أحيانا، صادمة فى أحيان كثيرة.

المراجع

١ ـ إدوارد لين: المصريون المحدثون ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة

٢ ـ أحمد بهاء الدين: أيام لها تاريخ ـ كتاب الهلال (١٩٩٠)

٣ ـ أحمد عبدالمعطى حجازى: الأعمال الكاملة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٦)

٤ ـ سمير سرحان: على مقهى الحياة ـ مكتبة الأسرة (٢٠٠٦)

٥ ـ جيفارا: حرب العصابات

٦ ـ محمد يوسف الجندى ـ مسيرة حياة ـ دار الثقافة الجديدة الطبعة الأولى (٢٠٠١)

٧ ـ نعمان عاشور: المسرح حياتى ـ القاهرة للثقافة العربية (١٩٧٤)

٨ ـ رضوان الكاشف: الحرية والعدالة فى فكر عبد الله النديم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٥)

٩ ـ تحت شمس الكتابة شهادات ودراسات فى سليمان فياض ـ دار المريخ للنشر (١٩٩٩)

١٠ ـ زكريا أحمد تأليف صبرى أبو المجد ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (١٩٦٣)

١١ ـ أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة تأليف عبد الحميد توفيق زكريا ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٠)

١٢ ـ بناة القاهرة تأليف عبد الرحمن زكى كتاب الثقافة الجديدة (٢٠٠٥)

١٣ ـ "إنى أعترض" مسرحية تأليف ناجى جورج على نفقة المؤلف (١٩٨٥)

١٤ ـ مسرح الشارع: هنرى ليسينك ـ ترجمة عبدالسلام رضوان كراسات الفكر المعاصر فبراير (١٩٧٩)

١٥ ـ رجاء النقاش : نجيب محفوظ صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر (١٩٩٨) الطبعة الأولى
١٦ ـ عيد عبدالحليم : رسائل نجيب محفوظ بين فلسفة الوجود ودراما الشخصية ـ الدار المصرية اللبنانية (٢٠٠٦)
١٧ ـ د. فاطمة موسى : نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية مكتبة الأسرة (١٩٩٩)
١٨ ـ د صبرى حافظ : سرادقات من ورق ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة كتابات نقدية ديسمبر (١٩٩٨)
١٩ ـ القصبجى حياته وأعماله ـ تأليف محمود كامل ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٩٧١)
٢٠ ـ أنور المعداوى : نماذج فنية من الأدب والنقد ـ القاهرة : دارا لنشر للجامعيين (١٩٥١)
٢١ ـ د. على شلش : أنور المعداوى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٠)
٢٢ ـ شهادات حية من المبدعين من رواد المقاهى ومقابلات أجراها المؤلف .

المحتوى

• الباب الثالث :

المؤلف

*** عيد عبدالحليم**

– رئيس تحرير مجلة "أدب ونقد"

– رئيس القسم الثقافى بجريدة "الأهالى".

– ولد فى محافظة البحيرة فى ٨ يونيو ١٩٧٦

*** صدر له:**

١ ـ الأعمال الشعرية:

– سماوات واطئة ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة (٢٠٠١)

– ظل العائلة ـ سلسلة إبداعات الهيئة العامة لقصور الثقافة (٢٠٠٢)

– تحريك الأيدى ـ دار النهضة العربية ـ بيروت (٢٠٠٨)

– العائش قرب الأرض ـ سلسلة "أصوات أدبية" الهيئة العامة لقصور الثقافة (٢٠٠٨)

– كونشيرتو ميدان التحرير ـ كتاب أخباراليوم ـ إبريل (٢٠١١).

ـ موسيقى الأظافر الطويلة ـ سلسلة ديوان الشعر العربى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠١٤).

٢ ـ الأعمال الفكرية والنقدية:

ـ فقه المصادرة.. محاكم التفتيش الجديدة فى الوطن العربى ـ المكتب المصرى للمطبوعات (٢٠٠٦)

ـ رسائل نجيب محفوظ بين فلسفة الوجود ودراما الشخصية ـ الدار المصرية اللبنانية الطبعة الأولى (٢٠٠٦)، الطبعة الثانية (٢٠٠٩)

ـ الشعر النسائى فى مصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٧)

– الحرية وأخواتها ـ مكتبة مدبولى (٢٠٠٨)

– ترجمت أعماله إلى عدة لغات

– شارك فى عدة مؤتمرات فى مصر والدول العربية

– جاء كتابه "الحرية وأخواتها" كأكثر الكتب مبيعا "بيست سيللر". فى العالم العربى لعام (٢٠٠٩)

صدر مؤخراً في سلسلة
حكاية مصر

20- حكاية مكتبة الإسكندرية القديمة ......حسام الحداد

21- الصحافة والحركة الوطنية المصرية .... د. لطيفة محمد

22- حكايات المجموعة ٣٩ .... محمد الشافعي

23- حكاية المسرح القومي.............. د.عمرو دوارة

24- حكاية البنك الأهلي المصرى ..... محمد مبروك محمد قطب

25- حكاية حى مصر القديمة .... د. خالد حامد السيد أبو الروس

26- حكاية مشعلي الثورات .... أحمد بهاء الدين شعبان

27- غزو مصر في العصور القديمة... د. صدقة موسى على

28- حكاية عملات مصر والسودان .... محمد مندو

29- حكاية مصر بين الخنادق والمخابئ.... عبد العزيز السباعى

30- حكاية الخبز في مصر الحديثة .... د. جمال كمال محمود

31- حكاية الطليعة الوفدية والحركة الوطنية...........

د. إسماعيل محمد زين الدين

رغم التغيرات الشكلية والجوهرية في بنية وشكل المقهى، فإنه سيبقى إحدى الظواهر المكانية المهمة في تاريخ ومستقبل الشعوب حتى وإن بدا تأثيره هامشيًا، مع دخول عناصر ترفيهية تنتمي إلى ثقافة العولمة.



www.gocp.gov.eg

الثمن : جنيهان